

القسم الثاني

العربية السعودية

إمبراطورية آل سعود

منذ عام ١٩٢٧ ، تحت راية المرحوم عبد العزيز بن سعود ، توحد القسم الأكبر من الجزيرة العربية حاملاً اسم : « مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها » :

وفي عام ١٩٣٢ ، صدر قرار ملكي يعطي لهذا الكيان السياسي الجديد اسمه الحالي : « المملكة العربية السعودية » . وما زال تنظيم المملكة يحتفظ حتى اليوم بصورته الاصلية المختلفة .

حتى مماته في التاسع من تشرين الثاني ١٩٥٣ ، كان الملك عبد العزيز بن سعود بمعنى الكلمة يجسد البلد الذي خلقه . لذلك تركت وفاة الملك وراءها لفترة من الوقت ، جواً من القلق والخوف من ان تتغلب القوى الانفصالية على الولاء للأسرة المالكة السعودية . غير ان ابن الملك الكبير ، الأمير سعود ، ولي العهد منذ سنة ١٩٣٣ ، تولى العرش دون أي اعتراض . وتدل اضطرابات اخرى من نوع جديد على بقطة شعبية قريبة بدأت تحدث في المملكة .

وعلى الملك الجديد سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل

آل سعود ، ان يواجه قضايا ومشكلات يتزايد تعقيدها مع الايام ، مشاكل لم تواجه سلفه الا عرضاً . فهناك في الداخل ، تطور البلاد الاجتماعي والاقتصادي ، يسر بخطى حثيثة ، وفي الخارج قضايا العالم الاسلامي والشرق الاوسط ، بدأت تأخذ مع الايام ، شيئاً فشيئاً صفة دولية ، ولا يستطيع سيد الاماكن المقدسة ان يبقى غريباً عن هذه القضايا المستحدثة .

ان الاثرء الاصطناعي في بلد كان فيما مضى لا يحسّ بالنطور الاقتصادي الحقيقي والسياسة العربية خاصة ، والاسلامية عامة ، واخيراً « الحياء » ، كل ذلك يضع المملكة العربية السعودية في طليعة بلدان الشرق الاوسط ، والسؤال الذي يثيره هذا البلد في ذهن من يراقب الاوضاع في الشرق الاوسط والاختصاصي في العلاقات الدولية هو معرفة مدى نجاح التجربة السعودية وامكانية استمرارها . ان النظام السعودي تحت ضغط التقدم والثروة لم يتغير الا تغيراً طفيفاً ، لقد ظهرت مع ذلك قوى اجتماعية جديدة ولكنها لم تأخذ بعد شكلها وتنظيمها . وسينشأ ربيع القرن المقبل اذا كانت العربية السعودية قادرة على ان تستمر في فرض نفسها كواحدة من كبريات دول الشرق الاوسط العربي والاسلامي واذا كان نظامها الذي جاء بعد عصره ، سيعرف اخيراً كيف يتكيف تجاوباً مع المتطلبات الحديثة . نرى هل سينتهي المطاف بعمل عبد العزيز ابن سعود الى مثل ما انتهت اليه الامبراطورية الوهابية في القرن التاسع عشر اي بتجزئة جديدة لمملكة متنافرة ، تسارع بعض اقسامها الى العودة الى الفوضى القبلية ؟

انها علامة استفهام يضعها باستمرار هذا البلد الذي تزيد مساحته على مساحة فرنسا بأربعة اضعاف بينما سكانه لا يصلون الى العشر . وفي محاولة فهم النطور ، يجب ان نعرف ، ولو باختصار ، الاسس التي قامت عليها هذه المملكة التي اطلق عليها « روبر مونتاني » اسم « مملكة

الوهابية والامبراطورية الاولى

في اواسط القرن الثامن عشر عصف في قلب الجزيرة العربية تيار اصلاحي توحيدي سببه الانحلال في الاخلاق والعادات : اذ قام حوالى سنة ١٧٤٥ فقيه حنبلي من قبيلة تميم في نجد يدعى محمد بن عبد الوهاب واخذ يبث دعوته الحماسية من اجل العودة الى الاسلام الحقيقي الخفيف التنظيف الطاهر ، كما اراد الرسول : لم يأت محمد بن عبد الوهاب بمذهب جديد ، ولكنه دعا الى اتباع التفسير الاصح والالتقى لسيرة محمد (صلعم) واحاديثه .

منذ القرن العاشر ، كانت الجزيرة العربية قد عادت الى فوضى الاحزاب والقبائل المتنافسة المتخاصمة المتحاسدة . لذلك لم تلاق دعوة محمد بن عبد الوهاب ، في البدء اي نجاح . وذهب الجهد الاصلاحي المبذول لتنقية الدين من الادران هدرأ ، بل لاقى مقاومة عنيفة من اكثرية الامراء البدو الصغار . واخيراً وجد المصلح من يستمع اليه بانتباه ، في شخص شيخ غامض ، رئيس واحة « دارية » قرب الرياض في اواسط نجد . وهذا الشيخ كان جد عبد العزيز بن سعود مؤسس العائلة المالكة الكبيرة . فافتتح بالدعوة الجديدة وتبناها . وهكذا اعطى محمد بن سعود الحركة الوهابية السيف والقاعدة الزمنية وهما ما كانت تحتاج اليهما لتحقيق انتشارها .

وفي سلسلة من الانتصارات العسكرية نشر عبد العزيز الاول ابن محمد بن سعود الدعوة الاصلاحية في كل الجزيرة العربية وخارجها في سوريا والعراق وحتى في آسيا الوسطى خارج العالم العربي . وبفضل القبائل البدوية المحاربة في اواسط الجزيرة ، تغلغت الوهابية جنوباً حتى

في عمان ، وغرباً في الحجاز ، وشمالاً في العراق ، وشرقاً في الاحساء ،
واكمل سعود خلف عبد العزيز انتصارات آبائه واجداده اذ ضم الاماكن
المقدسة ، مكة المكرمة والمدينة المنورة الى الامبراطورية السعودية الوهابية .
وهكذا لاقت دعوة محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية ، التي حملتها
اسلحة آل سعود اتباعاً اكثر . وفي فجر القرن التاسع عشر ، امتدت
الامبراطورية السعودية من البحر الاحمر حتى الخليج العربي ، ومن عمان
حتى بلاد ما بين النهرين . وهذا التوسع القوي السريع قد هدد وأخاف
الامبراطورية العثمانية التي كان قد دب فيها الضعف والانحلال ، فطلب
السلطان العثماني الى عامله في مصر ، محمد علي ، ان يحارب الوهابيين .
وبعد عدة محاولات فاشلة ، نجح محمد علي في دحر جيوش سعود
الذي قتل في المعركة . وفي سنة ١٨١٥ ، اعترف خلفه بسيادة الباب
العالي ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً . وبسبب حركات القبائل البدوية
المستمرة ، اوفد سيد مصر الى الجزيرة العربية افضل جنوده بقيادة ابنه
ابراهيم باشا . فغلب الوهابيين وسحقهم وذلك لأن ابراهيم باشا استطاع
ان يستميل القبائل الكبرى المعادية لسادة الرياض ، فدحر الجيوش
السعودية واحتل بسرعة « داريا » والرياض التي اباحها لجنوده . اما
رئيس الاسرة عبد الله بن سعود فقد وقع في الاسر وقطع عنقه . وبعد
عدة سنوات ، سحقت حملة ثانية ثورة وهابية جديدة في المهدي، واحتلت
اليمن في طريقها ، وخربت واحرقت كل ما يقع في متناول يدها قبل
انسحابها من الجزيرة عام ١٨٤٠ .

وهكذا اصبحت الامبراطورية السعودية الاولى اثرأ بعد عين :
لقد ترك المرتزقة المصريون والأتراك الجزيرة العربية وراءهم خربة
ممزقة بين القبائل البدوية المتنازعة . وبعد سنوات طويلة من النزاع
المستمر بين الزعماء والمحليين العديدين برز عام ١٨٨٥ ابن رشيد زعيم
قبيلة شمر حليف الاتراك وعدو آل سعود اللدود وانتصر انتصاراً موقفاً :

فدخل ظافراً مدينة الرياض ، وبعد سنوات لجأ الشيخ عبد الرحمن الفيصل آل سعود الى الكويت ، لدى امير صديق ، وهناك عام ١٩٠٠ تنازل الشيخ اللاجئ عن حقوقه الى ابنه الشاب عبد العزيز الثاني .

الامبراطورية الوهابية السعودية الثانية

في سنة ١٩٠٢ ، اندفع الامير عبد العزيز على رأس انصاره في هجوم مفاجئ صاعق على الرياض . وبفضل الحيلة التي حاكها نجح في دخول المدينة بدون مقاومة ، وثبت اقدمه في عاصمة اجداده . وهناك نظم نفسه وانطلق لاستعادة اراضيه . وبعد الحملات المتتالية ، والحروب المتواصلة التي دامت عدة سنوات ، استطاع الامير الشاب ان يسطر سيطرته على نجد ثم على قصيم وشمّر ، اي على اواسط الجزيرة العربية كلها .

وفي عام ١٩١٢ اسس عبد العزيز بن سعود منظمة « الاخوان » الدينية التي اشتهرت في الآفاق. وانتقى افرادها من اكثر القبائل اخلاصاً له ، واقام هؤلاء البدو المتحمسون في مستعمرات زراعية خضرية انشئت لهم خصيصاً في اواسط نجد ، بالقرب من العاصمة. واولى هذه المستعمرات كانت « ارطاوية » الى الجنوب من الرياض . وعلى اكتاف هؤلاء الاخوان الصلب العنيد ، جنود الايمان المخلصين ، الذين يستوحون في اعمالهم صحابة النبي (صلعم) قامت فتوحات ابن سعود الجديدة ، وحتى يومنا هذا مازال الاخوان درع الامبراطورية الجديدة الذي يصونها من العاديات .

وفي عام ١٩١٣ ، بعد حملة صاعقة ، احتل عبد العزيز بن سعود الاحساء ، دون مقاومة تذكر : وهكذا وصل امير نجد الى الخليج العربي . وكانت بريطانيا ، التي زحزحت تباعاً جميع منافسيها

الاوروبيين ، تعتبر المنطقة كأنها « حدودها الطبيعية » . فأسرعت ترسل الى الرياض ، احد مبعوثيها السياسيين ، النقيب شكبير بمهمة معينة ، تقضي بدفع عبد العزيز بن سعود الى محاربة اعدائه القدامى ، آل رشيد زعماء شمر . وكان الانجليز يهدفون من وراء ذلك الى امرين الاول إلقاء السعوديين عن متابعة توسعهم في منطقة الخليج ، والثاني اضعاف قوة الاتراك بمحاربة حلفائهم آل رشيد ، في الوقت الذي اندلعت فيه نيران الحرب العالمية الاولى .

غير ان النقيب شكبير قتل ، خلال اول معركة خاضها . واستمر عبد العزيز بن سعود في اتمام خطته دون « مستشار » بريطاني . وبعد ان حارب اخصامه التقليديين وانتهى به الامر الى دحرهم والقضاء عليهم قرر قلم الاستخبارات البريطاني والمكتب العربي في القاهرة تحويل الجهود الى الهاشمي حسين ، شريف مكة ، الذي سيصبح خصم آل سعود الاكبر وذلك بناء لتعليقات الكولونيل لورانس الشهير ، الذي ارتكب في هذا الامر غلطة فادحة لم تقدر نتائجها آنذاك . ولولا حقد لورانس على عبد العزيز بن سعود ، لكان تاريخ الشرق الاوسط غير ما هو الآن تماماً . ولكان بترول الجزيرة العربية لبريطانيا بأسره دون ان يصل شيء منه الى الاميركيين :

وقد حدثنا لورانس عن عمله في الحجاز الى جانب الملك حسين الهاشمي بتفصيل زائد في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » : ولكن هذا العمل على الاخص ، قد لحقه كثير من المبالغة والتحوير عن طريق المعجبين بهذا الرجل الاسطورة المشهور . ولسوء الحظ قد أثر تفهمه الخاطئ للأمر تأثيراً بالفاً اكثر الاحيان ، في السياسة البريطانية تجاه العرب ، منذ اربعين عاماً . الامر الذي يكمن على الأرجح ، وراء فشل هذه السياسة البريطانية غالباً ، والاحداث والوقائع كدبت كذلك باستمرار ما ذهب اليه لورانس في نظرياته السياسية . وخطأ حسده بشأن

عبد العزيز بن سعود ، وتفصيل حسين الهاشمي عليه ، اصدق مثل على ما ذهبنا اليه .

لقد فضل لورانس ، اذن ، ان يستخدم شريف مكة لدفع القبائل العربية الى اعلان الثورة على الدولة العثمانية . والامر الذي تركته ثورة الصحراء - هو ايضاً - موضع شك كشخصية صاحب فكرتها . بشأن الحقيقة في هذا المضمار من المفيد ان نذكر هنا رأي خبير فرنسي . ويجب بكل تأكيد ، ان تقاس احداث تلك الفترة في الصحراء العربية ، بمقاييسها الحقيقية كي تنكشف عنها الحالة الاسطورية . وقد كتب الجنرال ادوار برموند قائد البعثة العسكرية الفرنسية الى الجزيرة العربية سابقاً كتب عن الثورة العربية يقول :

« نحن نعلم ان الغرض الاساسي من الحرب في الجزيرة العربية انما هو تخريب خط الحجاز الحديدي ، الذي كان الاتراك يدفعون للقبائل الاموال من اجل حمايته وحراسته ، ان هذا بالضبط هو ما اسموه « الثورة في الصحراء » ، مع الحالة التي احاطها بها الدجال الذي خدع الرأي العام الاوروبي » :

على الرغم من ان هذا الرأي هو قاس فعلاً فانه يطابق ما نعلمه عن السياسة البريطانية في الجزيرة العربية ، سياسة « التبعية » التي كان على ابن سعود ان ينتظر فترة من الوقت لمقاومتها . وذلك لأن البريطانيين مع مساندتهم لسيد مكة ، حرصوا على توطيد العلاقة مع امير الرياض :

التفوق البريطاني

بينما كان لورانس يساند الملك الهاشمي ويَعِدُّه بتاج امبراطورية عربية كبرى ، نزل ، عام ١٩١٧ ، في اواسط الجزيرة ضابط سياسي قادم

من الكويت يدعى هاري سان جون بريدجر فيلبي ، وقد قدر له بعد ان اعلن اسلامه وسمي عبدالله ، ان يلعب مدة ثمانية وثلاثين عاماً دوراً بارزاً في الجزيرة العربية .

في السادس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩١٥ ، كان عبد العزيز قد وقع مع بريطانيا مساعدة مشابهة لتلك التي ربطت بانجلترا كلاً من البحرين والكويت . وهذا الامر يحمله ، على العموم ، او يغفل عن ذكره الكثيرون من المؤرخين ، انه ليس مشرفاً ، لا للعرب ولا للبريطانيين . اذ انه لقاء مساعدة مالية شهرية قدرها خمسة آلاف جنيه استرليني اعترف سلطان نجد للبريطانيين بحق الاشراف على علاقاته الخارجية . كجميع امراء الخليج والجنوب العربي تعهد عبد العزيز بن سعود بالألا يتنازل عن اي شبر من اراضيه في أي حال من الاحوال ، والا يقيم علاقات مع اية دولة الا بعد الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على ذلك .

وتعهدت بريطانيا من جانبها بحماية ابن سعود ، مهما كانت الظروف من كل اعتداء خارجي . وبروي الجنرال برمود - كما ذكرت التايمز في ذلك الوقت - ان سلطان نجد تلقى في الحقبة بين ١٩١٧ و ١٩٢٤ ، من انتاج البريطاني مبلغ ٤٧٧٣١٠ جنيهات استرلينية ذهباً . وكثير من المراقبين قد اعترافهم الذمول بسبب الخداع والمكر البريطانيين اللذين أمنت بريطانيا عن طريقهما جانب الخصمين العربيين الكبيرين حسين وعبد العزيز ، وذلك كي تبقى هي سيدة الموقف اباً كان الغالب ، ومع ذلك فقد كان هناك تمييز في المعاملة لأن حسين قدر ثمنه بأربعة اضعاف اكثر من الامير البدوي . كان يقبض شهرياً مبلغ عشرين ألف جنيه استرليني مقابل خمسة الاف فقط لعبد العزيز . وبالإضافة الى ذلك كان يوجد تنافس ما لبث ان تحول الى عداء مستحكم ، بين لورانس وفيلبي اذ ان كلاً منهما كان يدعم اميراً طموحاً ، ويستند الى رؤساء كانت

لهم مراكزهم ووجهات نظرهم الخاصة . (المكتب العربي - المكتب الهندي) .

توحيد الامبراطورية

بينما كانت الحرب العالمية الاولى تنازع في أيامها الاخيرة ، كلف الملك حسين الهاشمي ابنه الامير عبد الله - أمير الاردن وملكها فيما بعد - باسترجاع واحة الخربة من الوهابيين . فنهض رجال عبد العزيز ابن سعود وفاجأوا في الليل قوات شريف مكة وقضوا عليها ولم ينج من ايديهم إلا الامير عبدالله مع حفنة من انصاره . وهكذا بدأت سلسلة المنازعات بين الهاشميين والسعوديين ، هذه المنازعات التي كان لها اثرها الكبير في تاريخ الشرق الاوسط في خلال السنوات الاربعين الاخيرة . لقد تأثر الشريف حسين من فشل ابنه واستشاط غضباً لما علم بإنجح قواته فحاول ان يعرض هذه الخسارة بإثارة عسير ضد الوهابيين . وكان ان جهز هؤلاء حملة صاعقة بقيادة الامير فيصل الابن الثاني لعبد العزيز ، وضمت عسير الى امبراطورية آل سعود وذلك عام ١٩١٩ . وقبل ذلك التاريخ بقليل ، كان الامير فيصل آل سعود قد توجه الى لندن حيث خطا في سن الرابعة عشرة ، خطواته الاولى في الدبلوماسية الدولية ، بإشراف جون فيلبي . وفي عام ١٩٥٨ صار الامير نفسه ، على رأس وزارة الشؤون الخارجية في المملكة العربية السعودية .

ويجب الا ننسى ان موت زعيم آل رشيد عام ١٩٢٠ قد شجع ابن سعود على التخلص نهائياً من خصومه الالاء في اواسط الجزيرة وشمالها وكان آل رشيد قد ضعفوا كثيراً بعد وفاة زعيمهم المحارب القديم اذ تولى امير شاب متردد شؤونهم . وبعد معركة قصيرة وضع السعوديون ايديهم على شمر ووسعوا رقعة المملكة . ووفقاً لمخطط سياسي سيقى

اميناً له مدة طويلة ، اظهر ابن سعود شهامة ، تجاه الامراء المغلوبين فتزوج هو وزوج ابناؤه من بنات اعدائه القدامى واخواتهم .
واثر ذلك لم يبق من خصم عنيد لامير نجد سوى شريف مكة حسين الهاشمي . ولم يعد ينقص المملكة السعودية سوى الحجاز لاعطائها شكلها الحاضر . ولا ريب ان مرض التعاطف الذي اصيب به شريف مكة قد اتاح للوهايين سادة الرياض ان يجسدوا الحجة المقدسة للوصول الى البحر الاحمر .

اثر انهيار الامبراطورية العثمانية وخلع سلطان الاستانة ، فرغ مركز الخلافة الاسلامية . وفي الخامس من آذار سنة ١٩٢٤ ، في احتفال رسمي ، اعلن الشريف حسين نفسه خليفة على المسلمين ، على الرغم من معارضة عدد كبير من مستشاريه لثل هذا التصرف . وقد اثار هذا العمل سخط الوهايين وزاد القضية تأزماً ان موسم الحج قد قرب ولا بد من ان يذهب «الاخوان الاتقياء» الى مكة الواقعة في مملكة الهاشميين لتأدية الفريضة المقدسة .

وخوفاً من ان تعتبر هذه الرحلة اعترافاً « صريحاً » بخلافة حسين الهاشمي على المسلمين ، منع عبد العزيز بن سعود الحج منعاً باتاً على محاربيه الذين ثارت ثائرتهم ، وبلغت النقمة اشدها في صفوف «الاخوان» . عندئذ جمع ابن سعود رفاق النضال ليشرح لهم انه لا يجد اي ضرر في الهجوم على مكة وباقي الاماكن المقدسة في الحجاز والاستيلاء عليها ، واعادتها الى الاسلام الصحيح ، أي الى المذهب الصارم الذي دعا اليه محمد بن عبد الوهاب . فاستقبل «الاخوان» التواقون للحرب هذا الاقتراح بحماسة زائدة ، وراحوا دون ابطاء يستعدون لهذا الحج الفريد . ونتيجة لذلك ، في آب سنة ١٩٢٤ ، وصل الحجاج المحاربون الوهايون الى الطائف جنوب شرقي مكة ، المقر الصيفي للملك . فهرب الحسين الى مكة حيث أسرع في التنازل عن العرش لابنه علي . وبعد

بضعة أيام ، اضطرت القوات الهاشمية الى إخلاء مكة لتدخلها ، دون مقاومة ، قوات ابن سعود الوهابية . وقبل اتمام فريضة الحج نظف الاخوان المدينة المقدسة ، من المذابح العديدة التي تُعطي صبغة وثنية . خلال هذا الوقت ، بدأت فلول الهاشميين الذين لجأوا الى جدة حول ملكهم المنهار ، تنزع والغصة تأكل القلوب ، عن أرض الحجاز حيث سادت العائلة الشريفة قرابة ثمانية قرون . أما حسين العجوز فقد انسحب بعد قليل من الوقت ، الى قبرص ، في ظل الحماية البريطانية التي كفلت مستقبل ولديه فيصل وعبد الله بتنصيبهما على عرشي العراق والاردن اللذين أوجدا لهذه المناسبة بعد محاولة دمشق التي أحبطها الجنرال غورو .

تنظيم الفتوحات

في فجر سنة ١٩٢٥ ، بعد مرور ثلاث وعشرين سنة على احتلال الرياض ، صار عبد العزيز بن سعود سيد الاراضي الواقعة بين الخليج العربي والبحر الاحمر وبين رمال النفوذ والربع الخالي . وفيما عدا للكتل الجبلية في اليمن وعمان ، والشاطئ الممتد من باب المندب الى قطر ، اصبح الزعيم البدوي يسيطر على اهم ما في الجزيرة العربية . ولكن سلطانه لم يكن قد تركز بعد ، ولذلك تخلى مؤقتاً عن كل مشروعاته الحربية التوسعية . وفضل ان يصرف كل جهوده في تنظيم فتوحاته . كان مقصده ان يعطي هيكلاً ادارياً لهذه الاراضي المتفاوتة في ظروفها وفي تقاليدها ، وتوحيدها واقرار الامن والسلام فيها . وكان لا بد من هذا العمل ليتم خلق المملكة العربية السعودية .

بعد زوال الهاشميين من الحجاز ، دخل سلطان نجد وملحقاتها الى جده في الخامس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٢٥ . واعطى لممثلي الدول الاجنبية ضمانات مطمئنة ، كما تأكد من حسن نواياهم

تجاهه . وبعد بضعة ايام دخل مكة حيث اعترف به في الثامن من كانون الثاني سنة ١٩٣٦ ، مجمع ضم الاعيان ورجال الدين ، « ملكاً على الحجاز » . وأصبح لقب عبد العزيز بعد ذلك « ملك الحجاز وسultan نجد وملحقاته » .

كان الملك الجديد يشعر شعوراً مكيناً بمدى التفاوت في التطور بين الحجاز ونجد وباقي المقاطعات . وفي الحادي والثلاثين من آب سنة ١٩٢٦ اعلن عبد العزيز قانوناً تنظيمياً سمي « دستور » مملكة الحجاز . وعلى الرغم من انه قد طرأ مراراً تعديل على هذا الدستور الذي ظلت بعض اقسامه حبراً على ورق ، فإنه كان وما زال احدى الوسائل الرئيسية التي نظمت بموجبها الدولة السعودية الموحدة . والنص الرئيسي في رأينا هو ذاك الذي جاء في المادة الخامسة التي تعلن :

« ان السلطة الكاملة لمملكة الحجاز هي بين يدي جلالة الملك عبد العزيز الاول بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود . يستوحي جلالته ادارتها من الشريعة الاسلامية » .

هذا ويجب ان نلفت الانتظار الى انه لا يوجد دستور للمملكة كلها ، لذلك يعتبر دستور الحجاز دستوراً لها كلها . وفي عام ١٩٣٢ اعلن عن قرب سن دستور جديد للمملكة العربية السعودية . ولكن فيما عدا بعض التعديلات التي طرأت على دستور الحجاز ، لم تنشر اية قوانين دستورية إلا نظم مجلس الوزراء والاجهزة التابعة له وقد صدرت في السابغ عشر من آذار سنة ١٩٥٤ .

ومنذ وضع عبد العزيز آل سعود يده على الاماكن المقدسة الاسلامية اعترفت الدول الكبرى وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا به سيداً على هذه الاماكن . وفي التاسع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٢٧ ، صدرت ارادة ملكية باعلان نجد وملحقاته مملكة وضمها الى الحجاز . ولم تتوان بريطانيا في الاعتراف بالوضع الجديد في معاهدة جدة الموقعة في العشرين

من ايار سنة ١٩٢٧ بينها وبين عبد العزيز بن سعود . وقد جاء في المادة الاولى من هذه المعاهدة ما يلي : « ان حكومة صاحب الجلالة ملك المملكة المتحدة تعترف باستقلال وسيادة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها » وفي المادة السادسة يعترف الملك عبد العزيز بمركز بريطانيا الممتاز في الكويت والبحرين وقطر وشاطيء القراصنة ، متعهداً باحترام هذا المركز وابقاء العلاقات الودية المسالمة مع هذه الاقطار .

وبعد ذلك وقعت اتفاقات ملحقة سوت الامور بشأن الحدود مع الجيران الشماليين العراق وشرقي الاردن والكويت الذين كانوا جميعاً لا يزالون تحت الانتداب او في ظل الحماية البريطانية .

لقد كان لمعاهدة جدة اهمية خاصة . ولنا ملء الحق ان نعتقد انها تشكل الصك الرسمي لولادة المملكة العربية السعودية ككائن دولي ودخولها فيها اتفق على تسميته « اسرة الامم » وذلك لأن المعاهدة أبطلت مفعول المعاهدة المشينة الموقعة في عام ١٩١٥ وحلت محلها ، مزية بذلك روابط التبعية المباشرة لبريطانيا . لقد كانت تلك المعاهدة القديمة تضع عبد العزيز بن سعود في مصاف مشايخ شاطيء القراصنة الصغار المتنازعين . واما المعاهدة الجديدة في جدة فقد رفعت الامير المنفي في الكويت الى مصاف ملك يبسط سلطانه على مملكة مترامية الاطراف .

والجدير بالذكر ان هذا الاتفاق لم يكن من رأي الرعية كلها ومعاهدة جدة اثارت نقمة « الاخوان » الذين غضبوا وثاروا لحرمانهم من احتلال بلاد ما بين النهرين الخضراء الحصبة وذلك فجأة بتوقيع معاهدة مع المارقين . وكثيرون من زعماء الاخوان الكبار تمردوا وأعلنوا العصيان فتعرض عرش ابن سعود الحديث العهد الى تجربة عنيفة قاسية وبين عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٩ اضطر الملك البدوي مرغماً الى ان يحارب المتمردين الذين لم يستطع اقناعهم بالحسن بصدق نواياه . وبفضل ما تكبده الملك في اخضاع المتمردين برهن عبد العزيز عن صلابته وتمسكه

في المحافظة على ما كافح من اجله طيلة ربع قرن . وبتصفيته ونفيه الزعماء المتمردين اكد الملك سلطانه وسيادته بصورة لا تقبل الشك : وقد كانت هذه التجربة فائقة الاهمية بالنسبة للملك . ولمس سيد الحجاز مكافأته في نهاية عام ١٩٢٩ ، عندما رفعت قنصلية فرنسا في جدة الى رتبة مفوضية . ولم يمض وقت طويل حتى كانت الدول الاخرى الممثلة في العربية السعودية تحذو حذو فرنسا.

المرحلة النهائية

اتخذ اجراء آخر لتوحيد الامبراطورية السعودية وتدعيمها بعد ثلاث سنوات ففي الثامن عشر من ايلول سنة ١٩٣٢ ، صدرت الارادة الملكية ذات الرقم ٢٧١٦ وجاء في مادتها الاولى :

« يستبدل باسم مملكة الحجاز ونجد ومحقاتها اسم المملكة العربية السعودية : ومن الآن فصاعداً يصبح لقبنا « ملك المملكة العربية السعودية » .

واما المواد الثلاثة والرابعة والخامسة من المرسوم فتؤكد ان هذا التغيير في الاسم لا يؤثر في شيء في المعاهدات والانظمة المعمول بها ، ولا في انظمة الملحقات . وتعد المادة السادسة بدستور جديد عام ونحن نلاحظ ان شيئاً من هذا القبول لم يتم .

وعلى الرغم من العرف المتبع الذي اعتبر بموجبه القانون التنظيمي للحجاز دستوراً للمملكة السعودية ، فإن تجزئة المملكة اقليمياً حوفظ عليها مبدئياً بابقاء نيابة الملك في الحجاز ، ولوناً من الوان الاستقلال الذاتي المحلي في المقاطعات الاخرى . ويمتاز الحجاز بادارته المتطورة المنظمة نوعاً ، وذلك يعود الى صفته الدولية التي تقتضي نظماً ادارية كثر تعقيداً .

وينجب مع ذلك ان نتذكر جيداً المادة الخامسة من الدستور الشهير ، اذا كنا نريد ان نفهم حقيقة الاوضاع الداخلية في العربية السعودية اي انه يجب ان نبدأ من فوق : من الملك . والملاحظة التي تفرض نفسها بسرعة على الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية ، هي حصر السلطات جميعها من حكومية وادارية وقضائية في شخص الملك.

ومهما يكن المستوى والمجال ، لا يمكن اتخاذ اي قرار هام الا بعد الرجوع الى الملك . والتميز التقليدي بين السلطات الذي اعتادت عليه دول الغرب لا معنى له هنا . وجميع الصلاحيات التشريعية والتنفيذية كل ذلك يقوم باعبائها شخص واحد فرد . وحتى المهام الثانوية في الادارة يشرف عليها الملك اشرافاً مباشراً وفعلياً في اكثر الاحيان . واذا اضفنا الى ذلك ان ملك العربية السعودية هو في نفس الوقت الامام الاعلى للوهابيين ، والقاضي الاكبر ، والمفسر الاكبر للشريعة ، نصل الى الاستنتاج التالي الذي يقول بأن مملكة الحق الالهي السعودية الوهابية تشكل اصدق واكمل مثل عن الملكية المطلقة : واليمن وحدها المملكة الاخرى في الجزيرة العربية يمكنها ان تنافس السعودية في مجال النظام الملكي المطلق :

وقد جرت محاولات قبيل موت عبد العزيز ، لاجراء بعض الاصلاحات الجزئية الصغرى من اجل تلطيف الصفة الاستبدادية في نظام الحكم السعودي . ولكن تلك المحاولات بقيت محدودة . وكفي نفهم العربية السعودية يجب ان نتذكر السلطة الفردية المطلقة في نظام الحكم :

العربية السعودية في القرن العشرين

الى جانب سلطة الملك غير المحدودة يبدو جهاز التنظيم السياسي الذي يمكننا ان نصفه بأنه قليل الاهمية. واولئك الذين سمحوا لانفسهم بالاعتقاد بأن الملك سعود سيكون اقل استبداداً ، عرفوا بكل بساطة خيبة الأمل الكبرى : ففي عام ١٩٥٨ ، كما هي الحال منذ ثلاثين سنة ، ما زال يدير البلاد سيد العربية السعودية ، ويتصرف بالملكات والسكان كأنه يتصرف بأملكه الشخصية الخاصة .

والملك الحالي سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود المولود عام ١٩٠٢ كان قد عين ولياً للعهد عام ١٩٣٣ ليخلف عبد العزيز الكبير بعد ممات هذا الاخير في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩٥٣ : ويلقب الملك سعود احياناً ابن سعود الثاني ، وهذا امر واضح خطأ : خلال العشرين سنة الاخيرة التي كان فيها رسمياً الشخص الثاني في المملكة ، حاز الابن الاكبر للملك الراحل شيئاً فشيئاً مركزاً ازدادت اهميته مع الايام ، بتوليهِ قسماً كبيراً من ادارة الحكومة . وتعلم ، اثناء

ذلك ، مهنة المستقبل ، وفي نفس الوقت اعتاد اخوته على احترام سلطته . ويشرح ذلك الاختصاصي في شؤون الجزيرة العربية ، جون فيليبي ، الذي كان صديقاً للملك عبد العزيز وشاهد عيان للتاريخ السعودي اذ يقول : عندما بدأت القوى الجسدية والعقلية للملك الراحل تضعف في السنوات الاخيرة من حياته الحافلة ، تحمل سعود باسم والده ، قسطاً زادت اهميته مع الايام ، من ادارة البلد . وهذا الامر الواقع اصبح قانونياً ، قبيل موت الملك عبد العزيز بأسابيع عندما انشئ مجلس للوزراء مسؤول امام الملك . وهكذا اصبح ولي العهد والقائد العام للقوات المسلحة ، رئيساً للوزراء ، بينما تولى اخوه فيصل وزارة الشؤون الخارجية ونيابة رئاسة الوزارة . وعلمياً كانت قد انشئت عدة وزارات خلال مدة ولاية الملك عبد العزيز ولكن بطريقة اعتباطية ، والذين تولوها لم يكونوا سوى مستخدمين مكلفين بتنفيذ قرارات الملك ، وبتقديم مقترحاتهم اليه . ولم يكن هناك ، فيما خلا الملك ، اي جهاز مركزي لتنسيق سياسة المملكة . وقبيل مماته بشهر من الزمن ، في التاسع من تشرين الاول سنة ١٩٥٣ عقد الملك عبد العزيز لاول مرة مجلساً للوزراء جعل ابنه الاكبر وولي عهده الامير سعود رئيساً له كما عين ابنه الثاني الامير فيصل نائباً لرئيس مجلس الوزراء .

وبعد موت الملك بيضعة اسابيع ، اصبح سعود رئيس الوزراء ، وولي العهد السلطة العليا في المملكة بدوره . وبدأت الهيئة الجديدة اي مجلس الوزراء كأنها فقدت وجودها واعتبر المراقبون المأذون لهم ، في تلك الحقبة ، وخاصة جون فيليبي ، تسم الملك الجديد سدة العرش عودة الى السلطة المطلقة الفردية . ومع ذلك ، خلال الاشهر الاولى لولاية الملك الجديد ، انشئت وزارات جديدة ، هي التعليم ، والزراعة في ٢٤ كانون الاول سنة ١٩٥٣ ، والتجارة في ١٧ آذار سنة ١٩٥٤ ، كما اعيد تنظيم وزارات اخرى كوزارتي المالية والاقتصاد . واصبح الامير فيصل بدوره

الشخص الثاني في المملكة بعد ان أعلن ولياً للعهد... ترى هل أدى ذلك الى تلطيف النظام ؟

وبسبب المضاعفات والتعقيدات الناشئة عن المهام الحكومية ، مال الملك الى التخلص من المهام الثانوية . لذلك وسع مجلس الحجاز الاستشاري ليضم ممثلين عن كل المقاطعات . ومع ذلك بقي الملك المرجع الوحيد لجميع السلطات لا يتخلى عن شيء من سلطانه الا عندما يرى ذلك مفيداً ، والذين يختارهم الملك ويضع ثقته فيهم يكونون مسؤولين امامه ، وامامه فقط عن كل عمل يقومون به .

مجلس الوزراء

يجب ان نذكر في سياق هذا الكلام ان نحكم على امور العريسة السعودية ، من خلال تجربتنا الغربية فقط لمثل هذه الامور . ان الكلمات هنا لا ترتدي المعنى الذي اعتدناه نحن ان نعطيها اياه في الغرب . اذا تذكرنا ذلك بالنسبة لمجلس الوزراء ، امكنا ان نعتبره خطوة كبرى في طريق التقدم .

بدأت الدورة الرسمية الاولى لمجلس الوزراء في الثامن من آذار سنة ١٩٥٤ . وبعد ايام ، في السادس والعشرين من آذار ، نشرت : « ام القرى » الصحيفة شبه الرسمية ، نص مرسومين ملكيين عن تنظيم مجلس الوزراء والاجهزة التابعة له . وبعد خمسة اشهر في السابع عشر من آب سنة ١٩٥٤ ، صدر قرار اكثر اهمية يكرس التغييرات الجديدة التي حصلت في جهاز البلاد الحكومي . ويقضي بتعيين الامير فيصل ولي العهد ووزير الخارجية ، رئيساً لمجلس الوزراء . وبهذا القرار التاريخي اظهر الملك سعود عن رغبته في الابقاء على مجلس الوزراء ، حتى ولو كان المجلس واعضاؤه قد بقوا بدون سلطات ، وتوجب عليهم ان

يحصلوا على موافقة الملك على كل عمل يرغبون تحقيقه :
إن المراسيم الملكية الصادرة في الثامن عشر من رجب ١٣٧٣ هـ :
الموافق للسابع عشر من آذار سنة ١٩٥٤ ، والمنشورة في صحيفة « ام
القرى » يجب ان تعتبر دون أدنى شك ، قوانين دستورية .
والاجراءات التي تتخذها هي الاله لتهيير الدولة منذ دستور ١٩٢٦
والمرسوم الاول ينظم مجلس الوزراء ، بينما يحدد الثاني مهام الاجهزة
المرتبطة به :

ويذكر المرسوم الاول ان مجلس الوزراء يتألف من وزراء عاملين ،
يعينون بمرسوم ملكي ، ومن مستشارين للعرش يعتبرون عملياً كأعضاء
مجلس الوزراء ، ومن كل شخص يعتبره الملك نافعا للمناقشة . انه اذن
نوع من المجالس الحكومية المعنية بكاملها بواسطة الملك دون اي تحديد
مسبق . والوزراء مسؤولون امام الملك وأمام مجلس الوزراء . واستقالتهم
يجب أن تحظى بموافقة الملك .

ويدير مجلس الوزراء نظرياً سياسة الدولة الداخلية والخارجية ،
وهو مكلف على الاخص بالموافقة على الموازنة والمعاهدات والاتفاقيات
الدولية ، والعقود الخاصة بمنح امتيازات أو قروض تزيد قيمتها على
ثلاثين مليون ريال سعودي . وهو ايضاً مخول بالموافقة على تأليف
الشركات المساهمة ، واعطاء ترخيص للعمل في المملكة لشركات اجنبية ،
وحل النزاعات التي تكون الدولة طرفاً فيها ، اذا كان موضوع الخلاف
تزيد قيمته على خمسين مليون ريال سعودي ، ثم تعيين وعزل كبار
الموظفين ، وخلق وظائف جديدة لم يرد ذكرها في الموازنة ، والتوقيع
على كل العقود الخاصة بتشغيل الاجانب . وكان يمكن أن تبسـو
الصلاحيات التي ذكرنا أكثر جدية ورسانة لو أن المادة التالية من
المرسوم لم تشترط لتصبح مقررات مجلس الوزراء نافذة ، الموافقة عليها
بالأكثريه ، وبحضور ثلثي أعضاء مجلس الوزراء على الأقل ، واقرارها
بتوقيع الملك . والمواد الاخرى تقتصر على شرح كيفية عمل الجهاز

روتينياً . اذن لقد بقي الملك ، السلطة التي تعين الوزراء وكل من يراه صالحاً للاشتراك في جلساته ، السلطة الوحيدة التي لها حق اتخاذ قرار ووضعه موضع التنفيذ .

والمرسوم الخاص بتنظيم مجلس الوزراء يقول في مادته التاسعة عشرة إن ديواناً سيحدث لمعاونة المجلس وهو مؤلف من الاجهزة التالية : أمانة عامة ، ديوان محاسبة ، مكتب فني ، ومحكمة المظالم . وهناك نص آخر يحدد مهام كل من هذه الاجهزة .

أما ديوان المحاسبة فمهمته تدقيق حسابات الدولة والتصريح عن صحة المبالغ المسجلة في حساب الداخل والخارج في كل الاجهزة التابعة للدولة ويراقب نشاط هذا الديوان رئيس يحمل اسم المراقب العام ، يعينه الملك ويكون مسؤولاً امامه . وعلى المراقب العام أن يحرص على ألا تتم حركة نقل أموال في صناديق الدولة ، دون أن تكون مسجلة بدقة . وهو مكلف ان يقدم تقريراً سنوياً عن موازنة الدولة ، وغول أن يقدم اقتراحاته بشأن الشؤون المالية . وقد أدى انشاء هذا الجهاز بعد مرور ستة أشهر فقط الى فتح تحقيق واسع عن الوضع المالي في البلاد وقد تبين بعد ذلك أن وزير المالية كان قد جمع ثروة طائلة اسطوانية أدت الى عزله عن منصبه .

وبخصوص الخبراء الفنيين فهم يلحقون بمجلس الوزراء ومسؤولون أمامه . وهم يبدون آراءهم في القضايا التي يعرضها عليهم رئيس الوزراء او الوزير المختص ، كما تقول المادة الخامسة عشرة من المرسوم الملكي وانشاء هذا الجهاز من الخبراء في كل الفروع بات ضرورة ملحة لعدم كفاءة الاشخاص المكلفين بالمهام العليا في الدولة . وديوان المظالم أخيراً هو نوع من الدواوين الادارية . يشرف عليه رئيس يعينه الملك ويكون مسؤولاً أمامه . ويتلقى الديوان ويسجل كل شكوى تقدم اليه ، ويجري التحقيق اللازم ، ثم يرفع للملك تقاريره مشفوعة باقتراحات عن

الاجرامات التي يراها مناسبة لكل حالة : ولرئيس وأعضاء ديوان
المظالم سلطة استدعاء الموظفين الذين لهم علاقة بهذه الشكاوى بعد أن
يعلموا الوزير صاحب العلاقة ، بذلك مسبقاً .

ان انشاء الاجهزة التابعة لمجلس الوزراء وعلى الاخص ديوان المحاسبة
وديوان المظالم ، بات بالغ الضرورة لفقدان الشعور بالمسؤولية في الحياة
العامة . وقد كلفت هذه الاجهزة الجديدة بمراقبة سلوك كبار الموظفين
المهملين . ولكن كبار المسؤولين أي الامراء وأشقاء الملك بصورة
خاصة ، لا تصل اليهم سلطة هذه الاجهزة . وبممكننا أن نرى هنا
السبب الذي من أجله يصر الملك على أن يشرف شخصياً على الادارة ،
ولذلك ما زالت فعالية هذه الاجهزة ضعيفة .

الوزارات

وأعضاء الحكومة الذين يجتمعون في مجلس الوزراء هم الذين يتولون
الوزارات التالية : الزراعة ، التجارة ، المواصلات ، الدفاع ، التعليم ،
للمالية والاقتصاد الوطني ، الداخلية والصحة العامة ، والى جانبهم عدد
من وزراء الدولة (سبعة عام ١٩٥٧) بينهم الشيخ يوسف ياسين
وكيل وزارة الخارجية . وقد كلف امراء الاسرة المالكة تولي
شؤون وزارات الداخلية والمواصلات والتعليم والدفاع . اما وزارة
الخارجية فقد تولاها منذ انشائها ولا يزال الامير فيصل الذي اصبح في
عام ١٩٥٤ ولياً لعهده ، بالاضافة الى منصب رئاسة الوزارة . والى كل
هذه المهام زيدت مؤخراً مركز نيابة الملك في الحجاز . ويبدو من ذلك
أن الملك سعود أراد أن يندق الألقاب والمناصب على أخ قبل إنه
طموح وقادر على أن يتنازع العرش .

وهناك عدد من الادارات والاجهزة الوزارية ، تعمل مع ذلك الى

جانب الوزارات الكبرى : وهكذا أنشئت عام ١٩٥٥ وزارة للانباء والارشاد القومي ، تقليداً للوزارة المماثلة في مصر .

ومع أن المراكز المهمة قد سلمت الى أشقاء الملك او حلفاء الاسرة المالكة ، فان أهمية هؤلاء الاشخاص قد بقيت محدودة نسبياً حتى أبرزهم الامير فيصل والخبراء الذين وضع الملك ثقته بهم يستحقون اهتماماً واعتباراً أرفع . ولذلك نجد ، كما أشار اليه جون فيليبي ، المراسيم المنشورة بعد تولي سعود تحمل توقيع الملك نفسه ولا نعتراً إلا على حالة او اثنتين عهد بهما الى رئيس الوزراء . وعبثاً نحاول اذا فتنسنا على أمر حكومي لا يحمل خاتم الملك ، حتى في حقل الشؤون الخارجية ، الوزارة التي كلف مسؤولياتها نظرياً الامير فيصل .

هذا وقد كان التنظيم الملكي السعودي والنتائج المترتبة عليه موضع نقد شديد من قبل جون فيليبي في بداية عهد سعود . اذ خيل للصديق القديم ومستشار الملك الراحل أنه يملك صلاحية نقد نظام الحكم القائم في العربية السعودية . وكتيجة لموقفه هذا طرد جون فيليبي في السابع عشر من نيسان سنة ١٩٥٥ من البلد الذي اختاره وطناً له ، بعد اقامة ثماني وثلاثين سنة فيه :

اضرار الفساد

تتيح لنا انتقادات جون فيليبي ان نفهم الصعوبات الفادحة التي تواجهها الحكومة السعودية . ان المملكة العربية السعودية الوهابية ، لم تتوحد الا مؤخراً وقبل أن يقسو عودها حيث الثروة البرولية كأنها حمل جديد ثقل الوطأة . والتغير الملكي الذي حصل في تشرين الثاني ١٩٥٣ ترك املاً في التجديد والتطوير ، كان عجز عبد العزيز ومرضه يحولان دون ذلك . وكان جهاز الدولة قد وصل حينذاك الى درجة من

الفساد لم يعد في استطاعة أحد انكارها ، وهذا جون فيليب يصف لنا
بالعبارات التالية الاوضاع في السعودية لدى تسلم سعود سدة العرش :
بدأ الملك الجديد عهده بميزة لم يكن والده الذي شغل بقضايا اخرى
في إمكانه ان يستفيد منها . الا وهي معرفة وتجربة كاملتان للعيوب
المتفاقمة النقائص التي استشرت في الجهاز الاداري في البلاد بسبب
التقصان الفاضح في رجال الاختصاص اذ ان الاختصاصيين الموجودين
- لتقل بصراحة - كانوا من مستوى منخفض الى درجة مؤسفة من
حيث فهمهم للمسؤوليات التي تفرض الاثثار والدقة . وهؤلاء اختيروا
دون نظام من حثالات النخبة المثقفة « الانتليجانسيا » التي يمكن العالم
العربي ان يزود العربية السعودية بها ، في الوقت الذي تشعر فيه انها
في امس الحاجة لذلك . ويكفي ان نعلم بأن الكثيرين من الموظفين في
دوائر الحكومة ، قد بدأوا من لا شيء ليصبحوا فيما بعد من كبار
الاثرياء .

« ولم يكن التجار المحليون وحدهم الذين سمح لهم ان يلعبوا دوراً
بارزاً في ادارة الشؤون العامة كموظفين ، بل ان الاشخاص الذين
اختيروا خصيصاً للخدمات العامة ، لم يجدوا هم الآخرون عقبات تقف
في طريق توسيع اعمالهم التجارية الخاصة ، لتحسين اوضاعهم الاقتصادية :
والفعالية اذا لم تقل العفة لا يمكن ان تفتش عنها في نظام يدرس فيه
كل عقد بيع أو شراء تحتاجه الحكومة درساً دقيقاً ، ليس من جهة
قيمة العروض المقدمة ، بل من وجهة نظر الموظفين الخاصة ، الذين
يمكن ان يكونوا وسطاء في هذه العمليات لقاء عمولة من قبل الذي يرسو
عليه العقد . »

ويتابع جون فيليب كلامه فيفصح كيف استشرى الفساد في النظام
القائم باستمرار في الادارة الحكومية فيقول :
« قلائل جداً هم الموظفون ، الذين ليس لهم مصلحة ، عن طريق

عمولة او رشوة أو غير ذلك ، في هذه او تلك من الشركات المتعددة المختلفة الجنسيات والمنافسة اليوم من اجل الحصول على العقود او العروض المقدمة من حكومة العربية السعودية ... »

ثم يتحدث عن العصبية العائلية في السعودية ويقول :

« هناك نقيصة اخرى في النظام القائم ، ناجمة عن ذلك الميل الطبيعي لدى كبار الموظفين لاختيار الجهاز الوظيفي التابع لهم من بين ابناء عائلاتهم واصدقائهم ، وبذلك يخلقون ما يمكن تسميته فريقاً « ماسونياً » يحركه ولاء داخلي يعلو فوق الولاء الاسمي المتوجب نحو الملك والدولة » ونقطة اخرى من طراز مشابه قد تكون اهميتها اكبر ، وهي الميل ، الذي كان قد بدأ كبيراً في السنوات الاخيرة من ولاية الملك الراحل عبد العزيز ، الى تعيين أفراد العائلة المالكة في مراكز ادارية ليس عندهم اي استعداد او خبرة لها . وبسبب بقائهم شخصياً في منجى من الانتقاد لصفته العائلية ... قد تؤدي اخطاؤهم في الحكم على الامور أو عدم تجاربهم ، الى تحميل العهد والنظام كل ملامة ... »

واخيراً يحذر فيليب من اختلاس وتبذير اموال الدولة :

« ... اثناء العقد الاخير مثلاً ، لم تنشر الموازنة السنوية سوى ثلاث مرات لاختذ العلم بها ، وفي اية مرة من المرات الثلاث لم تعط الارقام المنشورة الرأي العام فكرة صادقة جلية عن الطريقة التي تم بواسطتها صرف اموال الدولة لصالح البلاد . »

ويستتج المستشار السابق للملك عبد العزيز من كل ذلك قوله :

« ... لقد قيل ما فيه الكفاية عن موضوع الفساد الذي يعتبر المشكلة الادارية الرئيسية المعروضة على الملك سعود بالحاح . ويبدو ان الكثيرين من كبار الشخصيات يجهلون مداه ... »

وعلى الرغم من ان الملك سعود بدا كأنه أخذ بعين الاعتبار التحذيرات القاسية الموجهة من فيليب في تشيكالاته الاصلاحية التي اجراها

عام ١٩٥٤ ، فان جوهر الامور لم يتغير . لانه في سبيل ذلك كان يجب ان تتخذ اجراءات أكثر جذرية وفعالية من تلك التي اكتفى باتخاذها . وينتص الحاكم خاصة ، الجهاز الاختصاصي الرفيع الذي لا يمكن المملكة العربية السعودية ولا الاقطار العربية الاخرى ان تزود به . ازاء هذه الختائق القاسية الجارحة فضل الملك الطريقة الرجعية ، والخطرة على المدى الطويل ، التي تقضي بأن يستند على القوى المحافظة لسحق كل معارضة :

المقاطعات

لقد سبق ورأينا ان التركيب الاداري الداخلي للدولة السعودية ، ظل محتفظاً بالجذور المتعددة السابقة لبروزها . وفي الواقع لقد اعتاد البعض في اكثر الاحيان ان يقارنوا بين الحجاز وباقي المقاطعات المسماة نجد وملحقاته ، وفي ذلك خطأ فادح لان كل قسم في الامبراطورية ينعم بلون من الاستقلال الذاتي ادالياً . وجميع الدول والامبراطوريات التي قد تجمعت اجزاؤها عن طريق الاحتلال والتوسع هي على غرار ذلك . والحجاز الاكثر تقدماً يقدم اصدق مثل على هذه اللامركزية التي فرضتها القوارق الاجتماعية والثقافية ، الى جانب اتساع البلاد . وقد لاحظ ك.س. نوبتشل ، المهندس الاميركي ، الذي كان وراء اكتشاف ثروات العربية السعودية المعدنية ، ان البلد منظم سياسياً حسب الاقسام الرئيسية الاربعة المتجاوبة مع الممالك التي كانت فيما مضى مستقلة والتي تشكل اليوم المملكة العربية السعودية . ويعتقد هذا المراقب ان « كل قسم سياسي يمكن اعتباره شبيهاً بولاية في الولايات الاميركية المتحدة » الامر الذي لا يبعد كثيراً عن الواقع . والممالك الاربعة القديمة التي تشكل المقاطعات اليوم هي : الحجاز ، نجد ، الاحساء ، وعسير .

أكثر من مرة اوضح المسؤولون ان المملكة انما تتألف من نيابتين للملك ، وهذا الأمر يمكن اعتباره صحيحاً في عهد الملك عبد العزيز . وفي الحقيقة ان الحجاز وحده يستحق ان نسبه نيابة للملك ، لأن باقي الامبراطورية كان قد قسم الى مقاطعات .

وكانت نيابة ملك الحجاز من نصيب الامير فيصل الذي يديرها مباشرة من عاصمتها مكة المكرمة . والادارة تضم اجهزة الشريعة والشؤون الداخلية والخارجية والمالية والتعليمية والدفاعية وستة اعيان . وبموجب الحركة الاصلاحية الأخيرة وسع هذا المجلس ليضم عدداً اوفر .

والمدن الكبرى، على الأخص، جدة الميناء الرئيسي والعاصمة الدبلوماسية والمدينة المنورة ، مدينة مقدسة اخرى مزودة بمجلس استشاري . ومجالس النواحي تدير الاقاليم الريفية باشراف رؤساء محليين يساعدهم بعض الأعيان . ويوجد على العموم تسع عشرة دائرة ، بما في ذلك المدن الخمس الهامة : جدة ، المدينة ، مكة ، الطائف ، ينبع . وهذه المدن تتمتع ايضاً بمجالس بلدية . وكل قرية او قبيلة يدير شؤونها مجلس يرئسه شيخ بمعاونة الاعيان ، والمراقبة الدينية صارمة في جميع هذه المجالس .

أما نجد وملحقاته فيدير شؤونه ، على الصعيد العالمي ، الملك نفسه من عاصمته الرياض . مع لامركزية افقية وعامودية لا بد منها . وهكذا نجد ، في التقسيم وشتمر التي تشكل قلب البادية ادارة مختلفة عن ادارة الاحساء المندفعة في طريق التصنيع ، وعسير أرض المزارعين الجبلين . ان الاحساء التي اصبحت منطقة بترولية بالغة الاهمية تنعم باستقلال ذاتي واسع في ظل ادارة حاكم عام يختاره الملك مسؤول امامه مباشرة . وعسير الأكثر بعداً تنطبق عليها نفس الحالة ، وهي مقسمة الى ناحيتين : ان الحالة في الاحساء ، وعسير منوطة بحاكم عام ، والحجاز بنائب ملك ، ونجد تحت اشراف الملك نفسه وهذه كلها وحدات شبه مستقلة

تعتمد في شؤونها العامة (المالية والدفاعية والخارجية ...) على السلطة المركزية في الرياض . وجميع الاقسام الثانوية الاخرى مثل القصيم وشمس في الشمال ، ونجران في الجنوب الغربي ، تتبع هذه او تلك من المقاطعات الاربع الكبرى . والحكام لهم على العموم سلطة واسعة ، بما في ذلك حق الحياة أو الموت على أتباعهم ، وذلك لأنهم يشكلون عادة أعلى سلطة قضائية في منطقتهم . وعلى العموم لا يجد سلطتهم الا العلماء الذين يمكنهم في كل وقت ان يعطوا الرأي الاخير في كل أمر له علاقة بالدين . وليس ذلك بمستغرب في بلد إسلامي ، يشمل الدين فيه جميع حقول الحياة .

البدو

ان أهم مشكلة داخلية في المملكة السعودية هي سكان الصحراء البدو أو نصف الحضر . ومنذ سنوات قلائل دعي البدو الذين يفتخرون بطريقة حياتهم الحياتية الى تركها ، لأن ابن سعود قد فهم انه لن يتمكن من قبض ناصية الامور في امبراطورية نصف سكانها يتظمون في حياة قبلية مستقلة ، تخرج عن نطاق الرقابة الصارمة التي تفرضها السلطة المركزية . وكما فعلت الحكومات الكثيرة الاخرى من وطنية واستعمارية ، قام الملك البدوي بمجهود كبير لتوطين البدو الرحل في أماكن معينة . وبفضل الحركة الدينية للاخوان نجح في تحضير حوالي الثلث . وبذلك خفف من فداحة المشكلة ، ولكنه لم يحلها . واذا كان التحول السريع للبيئة الجغرافية والاجتماعية والطرق الحياتية قد ساعد في الاحياء البرولية من أجل القضاء على « حياة البادية » فان قبائل كبيرة ما زالت حريصة على طرقها الحياتية في أواسط الجزيرة العربية . وما زال هناك دائماً مساحات شاسعة من الصحارى تحت متناول هذه القبائل لترحل فيها من

مكان الى آخر .

ومن أجل حكم هذه القبائل احتفظ بالنظام التقليدي وألحق بدائرة الشؤون البدوية . وسلطة الملك ابن سعود على هؤلاء الرعايا المزرعين قامت على أساس « معاملة الزبائن » . وهذه الطريقة التي قلدها البريطانيون في مناطق نفوذهم العربية ، تقضي بأن يوزع باستمرار ، وفي أوقات معينة ، على مشايخ القبائل مبالغ من المال تختلف قيمتها حسب أهمية القبيلة من حيث الرجال والجمال والبنادق التي يمكن ان تؤمنها . ويمكن القول بهذا الخصوص ان أهم عامل مكن العاهل الراحل من السيطرة على هذه القبائل الهائلة كان زواجه « السياسي » وزواج أبنائه . لقد أقدم الملك ابن سعود تباعاً ، ببصيرته النافذة ، على الزواج من اميرات من القبائل الأخرى أو الأكثر ازعاجاً . وتبعه كبار أبنائه في هذا المضمار ، واقتفوا آثاره ، وذلك لدرجة انه في الوقت الحاضر ، يمكننا القول ان العائلة المالكة تمثل شبكة مترابطة بين عائلة آل سعود والعائلات الكبرى الأخرى أو القبائل البدوية . والخصوم القدماء بصورة خاصة آل رشيد زعماء شمر ، يأخذون قسطاً وافراً من مصالح العائلة المشتركة : وغني عن البيان انه في نظام كهذا لا يمكن ان يتج سوى خضوع البدو للعهد القائم دون قيد أو شرط ، اذ ان كل قبيلة أصبح لها أبناء أو احفاد أنجبها بناتها من أبناء وأخوة وابناء أخوة الملك . وبين هؤلاء البدو الذين يشكلون أصلب أساس للمملكة وأمتته يحتل الاخوان المركز الاول .

الاخوان والمعارضة

تأسست منظمة الاخوان الدينية المحاربة ، عام ١٩١٢ ، من أجل تعبئة وتحضير جماعات من البدو ويتسبون الى قبائل مختلفة ، لا يجمعهم

سوى اعتناقهم لمذهب واحد هو المذهب الوهابي . وفي مستعمراتهم التي يزيد عددها اليوم على المائة ، يتعاطى الاخوان أعمال الزراعة وتربية المواشي . وقد قدمت أخصب أراضي نجد مع مساعدات مالية تغريهم بالغزوف نهائياً عن حياة البداوة والارتحال . وتتجمع مراكزهم الكبرى المهمة ، بصورة خاصة ، حول مهد العائلة المالكة في نجد ، وفي داخل الاحساء . وقد رأينا ان الدور الذي لعبه الاخوان في بناء المملكة السعودية كان كبيراً وبالغ الأهمية . ولكن فيما بعد ، اضطّر الملك بسبب تعصبهم الشديد الى التخفيف من نفوذهم .

وفي عام ١٩٥٥ ثم في عام ١٩٥٦ ، على أثر الاضطرابات التي تلتها في الاحساء ، منشورات واعتقالات في الحجاز لأنّ الملك من جديد في معاملته للاخوان وعاد ومنح بعض السلطات للقوات المؤلفة من مستعمرات الاخوان . ووفقاً لما يرويه فنان مونتاي ، سمح لدورياتهم من جديد ان تعاقب اولئك الذين لا يتقيدون بالوامر الدينية . واخذوا يفرضون سلطاتهم المفرطة ، ولكنها سلطة تفرض خاصة على رعايا حياتهم واملاكهم هي على كل حال منذ البدء تحت رحمة حاكم أو امير ، أو حتى أي مندوب عن السلطة الملكية .

ان نهضة « الاخوان » الاخيرة هذه بالغة الخطورة لأن هؤلاء المحاربين الوهابيين المتعصبين قد عارضوا دائماً بشدة ادخال التكنيك الغربي الى المملكة ، وكل تقدم يبدو في نظرهم مفسداً . لذلك كان على الملك ان يحافظ باستمرار على التوازن الدقيق بين مطالب رعاياه الرجعيين المخلصين ، وبين آمال اولئك الذين يناصرون التقدم ويعلمون عن استعدادهم في نفس الوقت للتخلص من الملكية المطلقة . ان منظمة الاخوان أداة مفيدة وخطرة في الوقت ذاته ولا يستطيع العهد ان يستخدمها إلا مقابل توضيحات كبرى . وفي منشور خاص صادر في عام ١٩٥٧ ورد فيه قول هام مدعوم بالمستندات بعنوان « الاخوان ضد الجيش »

وفيه نقرأ ان العاهل السعودي يتحفظ كثيراً في خلق جيش نظامي كبير ويفضل ان يصرف أمواله وجهوده وعنايته على القوات البدوية ، ويصف المنشور ان منظمة الاخوان ما زالت الأداة الحقيقية والأساسية الكامنة وراء قوة النظام واستمراره بفضل ميزتها الدينية المتزمتة وولائها للعائلة المالكة . وكما نكوّن فكرة عملية عن منظمة الاخوان يجب ان نعلم ان في إمكانها ان تجمع في بضع ساعات فقط مئة الف بندقية ، وربما ضعف هذا العدد . وما على « الضباط القتيان » في الجيش النظامي إلا ان يتحملوا ويصبروا حتى يمن الله بالفرج :

ولكن ما دام التفكك الاخلاقي مستمراً ، الامر الذي كشفه ، بصورة خاصة ، جون فيليب ، فان السلطات الزاجرة المفرطة الممنوحة للاخوان قد تصبح خطرة ، حتى على أفراد العائلة المالكة أنفسهم ، وعلى اعضاء الحكومة وعلى العهد والنظام . وما زلنا في الحقيقة بعيدين عن التفسير الصحيح الذي أعطاه محمد بن عبد الوهاب للاسلام ، عندما نرى أخوة الملك يجمعون اصدقائهم في حفلات أنس وشراب .

ان الثورة والتقدم المادي الذي سببته يهددان في الصميم نظام الحق الالهى الوهابي . وقد لاحظ الجنرال برموند منذ عشرين سنة ان النظام ما زال قائماً بصورة خاصة ، بفضل مواهب الرئيس الذي يديره . وليس هناك أي فضل للمؤسسات والعادات الراهنة ، بل في الواقع ، ان المؤسسات والعادات تسير على الارجح في اتجاه معاكس للوحدة . لقد لحق عبدالعزيز بن سعود بأسلافه منذ اربع سنوات ، وقد تم الانتقال من عهد الى عهد بدون حوادث ، والاضطرابات التي حصلت فيما بعد قمت بشدة وبقسوة ، وعناصر الفوضى طردت من البلاد ونفيت ، والقوى الهدامة روقت مراقبة صارمة وضيق عليها الخناق . ولكن هل يمكن ان يستمر ذلك ؟

ان التخمين يحمل معه الكثير من المخاطر ، ويمكننا ان نشير الى

وجود معارضة داخلية تجمع بين عناصرها لديها من مصادر مختلفة : ويؤكد وجودها طرد الرعايا الفلسطينيين من حين الى آخر بصورة خاصة. وسنة ١٩٥٥ عقبـت اضراب عمال البترول سلسلة من الاعتقالات واعمال النفي خارج الحدود ، وبعد وقت قليل ، تألفت في دمشق « الجمعية السعودية للاصلاح الوطني » ونشرت في السادس من تموز سنة ١٩٥٥ ، في احـدى الصحف السورية ، لائحة تتضمن مطالبها . وقد وجهت من خلال ذلك تهمة للملك تقول بأنه « يخنق الحريات ويذر اموال الدولة ، ويحرص على ابقاء الشعب يقامي الوان البؤس والشقاء والجوع والجهل ، وطالبت الجمعية باعلان دستور للبلاد واطلاق سراح المعتقلين السياسيين »

هذا وقد حصلت اضرابات اعم ومظاهرات افدح ، من جديد في الاحساء عام ١٩٥٦ . وكانت عمليات القمع اشد واقسى : وفي هذه المرة منع الملك منعاً باتاً الاضراب مهدداً باقصى العقوبات كل من تسول له نفسه ان لا يتقيد بهذا المنع :

التقدم ضد البدو الرحل

في هذا البلد العريق لا يمكن الا ان يكون لادخال التكنيك الحديث نتائج مضرّة : وليس من المعقول ان يجري القفز عشرة قرون من الزمن دون ضرر لدى بدو هم خلايا حيوية في جسم اجتماعي. والمقارنة السهلة الغربية بين الجمل والاناييب (وسيلتان للتقل عبر انصحراء) تفسح المكان امام حقيقة مرّة هي ان البدوي لا بد سائر نحو خسران قوته وسبب الحياة نفسه : والشؤم يكمن في سرعة التطور نفسها :

وقد كتب روبير مونتاي بجلاء ووضوح في اول كتابه الرائع الذي

خصصه للرعاة البدو يقول : « لنسرع ونراقب اليوم ، وجود القبائل البدوية المتنقلة في الصحراء . انها منذ اليوم مهددة ، ان لم يكن بالزوال ، فعلى الاقل بضعف نجف ، من جراء تقدم الحضارة الصناعية التي باتت تنتشر حتى في الصحارى والقفار . لان السيارة والطائرة ، وحافرة البترول ، والانابيب ، تغير كل يوم ملامح الصحراء وتحمل اليها حياة غريبة عنها . واود ان استشهد مرة اخرى بهذا البدوي المتصنع سان جون فيليبي الذي كتب بحنين ظاهر ، اثر عودته من رحلته الاخيرة ، « لقد اتاح لنا الحظ ان ندرس عن كثب وفي احسن الظروف ، شعباً بدوياً في طريق الزوال بسبب التغير الذي لا مفر منه في حياته العشائرية التي سيحولها الى نوع من ظلال وشبح . لقد اجتزنا خمسة آلاف كيلومتر في الصحراء ، دون ان نستخدم ، خلال كل ذلك ، اية وسيلة للنقل أقدم من السيارة او الطائرة . »

اننا اليوم نجد كثيراً من المدافعين البسطاء يتحمسون ليعلموا اعجابهم بنتائج اللقاء بين الحضارة التكنيكية الغربية وبين الحياة البدوية في قلب الجزيرة العربية . وهؤلاء خاصة هم من الكتاب الاميركيين الذين تربطهم علاقات وثيقة بالشركات البترولية لا تخفى على احد . اما المراقبون الرصينون فقد فضلوا ان يدقوا ناقوس الخطر امام هذه التطورات القاسية والقسرية في التركيب الاجتماعي والاقتصادي لدى البدو ، وازاء هذا التعمدي الفاضح على ما هو وقف عليهم . ليس المقصود بقولي هذا ان ارثي بحزن زوال البداوة التي هي اسطورة اكثر منها حقيقة . بل ارى لزماً عليّ ان اشير الى الانقلابات الحتمية الفائقة السرعة التي تقتلع جذور شعوب عشائرية عقلية ، واذكر انها تُعد بسرعة متزايدة مع الايام ، الحمبرة التي ستقوم بثورات المستقبل . والذي يقلق الخواطر ليس تطور البدو على كل حال وانتقالهم من البداوة الى الحضارة ، بل كون هذا

التغير المصطنع يقوم على ثروة قد تكون مؤقتة مع العلم ان الحاجات التي ستنشأ عن التطور لن يكون مجال للتهرب منها :
هنا تكمن عقدة المشكلة : ان المشكلة الاساسية في الصحراء العربية ان تطورا اجتماعياً سريعاً يحدث ويستمر دون ان يكون له اسس اقتصادية متينة .

الثورة الاقتصادية في الصحراء

ان خطر اختلال التوازن بين الوضعين الاجتماعي والاقتصادي في التطور السعودي يهدد ببلوغ اقصى درجاته عندما يتمكن التقدم التكنيكي في مختلف اشكاله بفضل وسائل النقل الميكانيكية من ان يتزع نهائياً من رجال القوافل البدو وسيلة معيشتهم الرئيسية . ان الجمل اليوم لم يعد يُستخدم في المسافات الطويلة ، وهذا الاساس الذي قامت عليه منذ اقدم العصور حياة البداوة والترحال الكبير الذي سمي « سفينة الصحراء » ، سيسبب زواله الانهيار الاكيد للمجتمع البدوي باكماله ، وعندما يتحقق هذا الانقلاب الاجتماعي الاقتصادي ، ترى هل سيستطيع البدو ان يعتادوا ويؤمنوا موارد رزقهم من الزراعة والصناعة المحليتين ؟ ان الطبيعة الصحراوية السائدة تحول دون تحقيق تقدم زراعي كاف لاعالة السكان حتى لو كانوا قليلي العدد . وفيما عدا البترول الغزير يمكن القول ان العربية السعودية محرومة من الثروات المعدنية الصناعية ، حرماناً شبه تام في هذه الظروف تزداد مشكلة اعالة سكان الصحراء الذين فكك

لركيهم النظام الاقتصادي الجديد ، صعوبة وحدة مع الايام ، وثروة البلاد الجديدة والتكنيك الحديث يجب ان يتمكننا من خلق نشاطات معوضة تتوافق مع خصائص الفئات التي يجب اعادة تعظيمها الاجتماعي . ولكن التبذير الجنوني والجهل المسيطر يحزمان المشروعات المنتجة من مبالغ طائلة قد تساعد على حل المشكلة ، والقضية ليست اقتصادية فقط ، فهناك عقلية يجب تغييرها وهي عقلية البدوي الذي يفضل كالدُّب ان يبقى جاعاً على ان يتقبل السلسلة .

ان البدوي على الرغم من بؤسه مطبوع بطابع النبل ، وفضلاً عن ذلك مُشتفى على الحضرة المساكين . وعقليته مجبولة بقيم اجتماعية واخلاقية صحيحة ، ضرورة للعيش في بيئته الجغرافية الاجتماعية الفريدة القاسية التي ليس لها مثيل .

لا شك انه على مرّ الحقب ، تحضر بعض من البدو واستقروا في مكان معين ومرت قبائل بدوية كبرى في مراحل متتالية من الارتحال الكبير (الجمال) الى الارتحال المحدود (الغنم) الى الارتحال الموسمي ، الى الاستقرار ، ومن وقت لآخر في هذه المرحلة الاخيرة تحتاج القبائل رغبة جامحة ودعوة عنيفة للعودة الى الصحراء ، قبل ان تستقر نهائياً ، ولتحقيق هذا التطور يلزم عادة حقبة طويلة من الزمن .

في شمالي افريقيا ، في الصحراء الكبرى ، رأينا تحولاً اسرع من البدوة الى الحضارة ولكن التحول والتغير اللذين يحصلان اليوم في العربية السعودية يتّمان بسرعة زائدة لا عهد لنا بها وعلى نطاق واسع يشمل المنطقة بأسرها .

واذا فحشنا عن السبب في هذه الثورة الاقتصادية وجدناه في البرول : لان انتاج هذا المعدن الثمين غذى الخزينة السعودية عام ١٩٥٦ بنحو مئة مليار فرنك . ورقم الاحتياطي المعروف هو ارفع رقم في العالم ، مع ان ثلاثة ارباع البلاد ما زالت حتى اليوم دون تنقيب . ولكن

المملكة حتى في حالتها المتأخرة لا تعيش من بيع منتوجها البترولي فحسب . وهناك بعض مواد الاستهلاك العادي تنتجها زراعة ما زالت بدائية على الرغم من بعض التجارب المغرية وما زالت تربية المواشي مظهر النشاط الاساسي لدى البدو ، وبالنسبة لبعض الانواع من الحيوانات تشكل فرعاً هاماً من الاقتصادي الزراعي الحضري .

ان الاشغال العامة واعمال البناء وجميع نشاطات النقل ، تعرف منذ عدة سنوات تطوراً كبيراً بالغ الاهمية والقسم الاكبر منه يعزى الى الصناعة البترولية في الاحساء والى الحج السنوي الموسمي الى الحجاز . والعامل الذي يقيد تطور الاعمال الانشائية هو قلة ابرادتها في هذه المساحات الصحراوية الشاسعة .

والتجارة الخارجية ناشطة في المملكة العربية السعودية اجمالاً . فهي لقاء بترولها الذي تُصدّرُ تستورد بعض المواد الغذائية والمنتجات المصنوعة وكميات كبرى من المواد الاستهلاكية ، قد يعتقد البعض ان العائدات البترولية تحفظ المالية السعودية في ازدهار متفتح ، ان العكس هو الصحيح ، والمالية السعودية تعيش باستمرار على شفير الهاوية والافلاس ، ولكن الاحتياطي الثمين من المعدن النادر الموجود في جوف الارض يتيح لها لحسن الحظ ان تجد دائماً دائنتين متفهمين في شخص الشركة البترولية المستثمرة او في شخص حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، ان كل ما له علاقة بالحياة الاقتصادية في المملكة العربية السعودية يقودنا الى البترول ، فله الاحترام والتبجيل والتكريم ، فلنبداً اذن به .

قصة التنقيب عن البترول

في سنة ١٩٠٨ لفت اكتشاف البئر البترولية الابرائينية الكبري في مسجد سليمان انتباه منقبي البترول ومغامريه وحلهم على ان يطلعوا الى

منطقة الخليج العربي . ونتيجة لذلك كلفت شركة بريطانية تأسست في لندن عام ١٩٢٠ هي شركة (ابسترن اند جنرال مندبيكت) ممثلها المايجور النيوزلندي فرانك هولمز مهمة الحصول على امتيازات بترولية بغية بيعها فيما بعد للشركات التي يهملها الامر .

ونجح هولمز مبدئياً في الحصول على ترخيص بالتقيب على الضفة الشرقية من الخليج العربي ، وفي ارخبيل البحرين . ثم تخلى عن هذا الترخيص الذي قدمه دون ربح الى شركتي - شل - والشركة الانجليزية الايرانية . أما الشركة الاميركية الكبرى (غولف اويل كوربوريشن) او - فريق ميلون - فقد اختارت البحرين ثم باعت امتيازها لشركة مستندارد اوف كاليفورنيا (فريق روكفلر) عام ١٩٣٠ . وخلقت هذه الاخيرة شركة تابعة لها في كندا بريطانية الجنسية كي تتوافق مع حقوق الحصر التي منحها امراء الخليج ومشايخه لبريطانيا بموجب المعاهدات الثنائية ، وكتب لشركة بترول البحرين (بابكو) ان تكتشف عام ١٩٣٢ طبقة كلسية مشبعة بالبتروئ ، الامر الذي قلب الافكار رأساً على عقب بشأن الامكانات البترولية في الضفة الغربية من الخليج : وفي عام ١٩٣٤ باعت مستندارد اوف كاليفورنيا خمسين بالمائة من البابكو لشركة التكساس اويل . وشكلنا بذلك فريق كالنتكس .

وفي داخل القارة العربية المجاورة ، كان العالم الجيولوجي الاميركي ك. م. تويتشل قد بدأ منذ عام ١٩٣٢ عمليات التقيب عن الثروات المعدنية في الجوف السعودي . وقد ساعده في ذلك مُتر أميركي يدعى شارل كران وهو صديق للعرب أصبح فيما بعد صديقاً لابن سعود .

وفما كانت التفتيات جارية على قدم وساق في جزيرة البحرين ، كان المهنتس الاميركي بنقب في الاحساء قبالة الجزيرة الكبرى ، موقناً من أن التركيب الجيولوجي مماثل هنا وهناك . وبناء لتوصياته تقرر انتظار

فنتاج عمليات الحفر التي بدأتها شركة بابكو قبل القيام بتقنيات باحثة
في الاحساء .

منح امتيازات

بعد اكتشاف البحرين ، اشتد التنافس بين الشركات الكبرى
البريطانية والاميركية من أجل الحصول على امتيازات للتنقيب في الاحساء
السعودية ، ولامر ما أهمل الماجور هولمز الترخيص الذي كان قد حصل
عليه . وشركة الستندارد اويل اوف كاليفورنيا هي التي ربحت في
هذه المرة أيضاً ، بفضل عرض سخى ، وتأسست شركة تابعة جديدة
باسم (كاليفورنيا عرايان ستندرد اويل كومبانى - كازوك) .

والامتياز الاول الذي سرى مفعوله منذ الرابع عشر من تموز سنة
١٩٣٣ مُنح لمدة سبعين سنة ، وهي يغطي مساحة تبلغ سبعة وثمانية
وعشرين الف كيلومتر مربع . وتمتد بشكل نصف هلال شاسع ، على
طول الشاطئ الشرقي من العربية السعودية ، بما في ذلك الربع الخالي
في الجنوب . وتتجه الى الغرب حتى الحدود اليمنية ، كما يؤكد ريتشارد
سنجر . وفي عام ١٩٣٩ زيدت المساحة التي يشملها الامتياز الى مليون
ومئة وأربعين الف كيلومتر مربع . اي ضعف مساحة فرنسا كلها .
وهذا الامتياز اللاحق الممنوح في الحادي والعشرين من تموز سنة ١٩٣٩
يضمن أيضاً حق السعوديين في المنطقة المحايدة جنوبي الكويت . ومُنح
لمدة ستين سنة . وأعطيت أيضاً الشركة ذاتها حق الانضمية في قسم
كبير من نجد .

وكما هي الحال في شركة بترول البحرين ، اقتسمت ستندارد
اوف كاليفورنيا مع شركة نكساس اويل مناصفة هذه الحقوق
منذ عام ١٩٣٦ . وفي مستهل عام ١٩٤٤ اطلق على الشركة
الجديدة المنبثقة من فريق كالتاكس اسم شركة الزيت العربية الاميركية .

(ارامكو) الاسم الذي اشتهرت به عالمياً . وفي عام ١٩٤٧ بيعت حصة قدرها ثلاثون بالمئة من الaramكو الى استندرد اويل اوف نيوجرسي ، وحصة اخرى قدرها عشرة بالمئة الى شركة سوكوني فاكوم .

وحصص الaramكو كحصص التابلين وزعت اذن كما يلي :

ستندارد اوف كاليفورنيا ٣٠٪

تكساس اويل ٣٠٪

ستندارد نيوجرسي ٣٠٪

سوكوني فاكوم ١٠٪

في ايلول سنة ١٩٤٥ أصدر الرئيس ترومان تصريحاً يؤكد ملكية الدولة لما يجاور سواحلها من ثروات في قعر البحار ، وبما ان التركيب الجيولوجي للخليج العربي لا يجيز الكلام عن منطقة قعرية ، فقد اعلنت الحكومة السعودية عام ١٩٤٩ سيادتها على الحوض البحري في عرض شاطئ الاحساء . ونتيجة لذلك امتد امتياز الaramكو الى حوض بحر خيالي ، لا حدود له ظاهراً .

وفي المنطقة المحايدة بين الكويت والعربية السعودية تخلت الaramكو عام ١٩٤٨ ، عن امتيازها الخاص الذي تناول الحقوق السعودية في هذه المنطقة . وتفاوضت شركة الباسفيك واسترن اويل مع الملك عبد العزيز . وفي العشرين من شباط سنة ١٩٤٩ وقع عبد الله السلطان وبرناباس هادفيلد اتفاق امتياز مدته ستون سنة . وفي عام ١٩٥٦ تحولت الباسفيك وسترن الى (جيبي اويل كومباني) باسم صاحبها م.ج. يول جيبي . وعملت جيبي اويل بالتعاون مع الشركة صاحبة الامتياز في الكويت ، شركة البترول الاميركية المستقلة (امينويل) واحتفظت كل من الشركتين باستغلالها عن الاخرى .

في طريق اكتشاف الذهب الاسود

ان اسم أرامكو مألوف لدى الجميع اليوم . فهو يرمز الى احدى كبريات الشركات في العالم . ومع ذلك فإن العدد الضئيل من المنقبين الذي نزل في الاحساء في ايلول سنة ١٩٣٣ لم يكن يظن في ان اربعين بالثة من حصص شركته المقبلة ستساوي خمسمائة مليون دولار عام ١٩٤٧ . وبعد عشر سنوات اي سنة ١٩٥٧ سيكون ثمن الحصة نفسها خمسة الى ستة اضعاف اكثر . واليوم يمكن ان تقدر قيمة الآبار البترولية السعودية بخميس مليارات من الدولارات على الاقل .

بدأ التنقيب في الدمام ثم اتسع نطاقه حول الخبر على الشاطئ ثم في الظهران على مسافة ستة او سبعة كيلومترات الى الداخل . وكانت اول عملية حفر قد تمت في الظهران عام ١٩٣٥ وأعطت دلائل مشجعة وخلال السنوات الثلاث التالية ، صرفت ملايين الدولارات على سبع عمليات حفر ، دون ان يهتدى الى مخزون من الزيت صالح للاستثمار . وفي آذار سنة ١٩٣٨ وصلت عمليات الحفر في البئر السابع في الظهران الى عمق ٤٥٥٠ قدماً واصطدمت بطبقة مشبعة بالزيت ، وعلى أثر ذلك دبت الحياة في التنقيب الفاتر البطيء . وبدأ النشاط في مرافق التنقيب وعادت آلات الحفر الى متابعة عملها في الآبار التي كانت قد هجرتها . وفتحت آبار جديدة كما أنشئت الخزانات وُمدت الانابيب وفي شهر ايلول انجهرت أول شحنة من الزيت السعودي الخام في الناقلات الى مصافي البحرين .

وأدى البحث الذي شجعته النتائج الاولى بعد فترة وجيزة الى اكتشاف حقل ابو جضرية على مسافة مئة وخمسين كيلومتراً تقريباً الى الشمال من الظهران ، ثم حقل الدمام وأبقيق ، وقطيف ، وعثمانية . وتوالى

الاكتشافات حتى كان آخرها حقل الحرسانية عام ١٩٥٦ وتؤلف آبار
العمانية وعين دار وشدقوم حقل الغوار الذي يزاحم حقل برقان
(الكويت) على الرقم القياسي في الاتساع في العالم : وفي حوضها
البحري استطاعت الارامكو منذ عام ١٩٥١ ان تجد طبقة منتجة في
صفانية . ويشر هذا الحقل الذي بدأ استثماره في نيسان سنة ١٩٥٧
في أن يكون من أهم الحقول البترولية . وبينما يستمر التنقيب وعمليات
الحفر في أحواض أعماق الخليج العربي ، تنتشر فرق البحث في
صحارى الربع الخالي . وتساعد الوسائل الحديثة وطائرات عامودية
وسيارات ضخمة صنعت خصيصاً للحصحراء وجزر اصطناعية - على
توسيع نطاق وامكانيات البحث . والنتائج التي حصل عليها المنقبون تشجع
الشركة على الاستمرار في عمليات البحث والتنقيب والاتفاق بسخاء .

الإنتاج والاحتياطي

ارسلت أول شحنة من البترول السعودي الخام الى البحرين في شهر
ايلول سنة ١٩٣٨ ووصل الانتاج في السنة نفسها الى خمسة وستين الف
طن . وبعد مد خط الانابيب الى رأس تنورة الذي دُشن في أول أيار
سنة ١٩٣٩ بلغ الانتاج في السنة الاولى أكثر من خمسمائة وعشرين الف
طن . وائر العراقيل التي نشأت عن الحرب العالمية خلال سني الحرب
الثانية بدأت أرقام الانتاج منذ عام ١٩٤٦ تقفز قفزاً الى درجة وصلت
به معها الى أكثر من سبعة وأربعين مليون طن عام ١٩٥٥ و ١٩٥٦
وأتاح انتهاء مد خط الانابيب عبر البلاد العربية عام ١٩٥١ مضاعفة
الانتاج . وأصبحت العربية السعودية في المرتبة الخامسة في العالم في انتاج
البترول بعد الولايات المتحدة وفنزويلا والاتحاد السوفياتي والكويت ،
وهي باحتياطها المعروف اليوم تحتل رأس قائمة البلدان المنتجة للبترول .

ففي عام ١٩٥٤ كان الاحتياطي السعودي الذي قدر بثلاثين مليار برميل يشكل ٢٤,٨٪ من الاحتياطي العام في العالم الرأسمالي . وفي عام ١٩٥٥ قدر الاحتياطي السعودي بخمسة وثلاثين مليار برميل .

ان احتياطي الشرق الاوسط بأسره يمثل منذ عام ١٩٥٣ نسبة ٦١,٢٪ من الاحتياطي العالمي . وفي عام ١٩٥٧ ارتفع الى ٧٠ ثم الى ٧٥٪ بفضل الحقول الجديدة التي اكتشفت في العربية السعودية والكويت والمنطقة المحايدة بينها بصورة خاصة . وتحتل المملكة العربية السعودية في هذا المضمار المرتبة الاولى . وما زال القسم الاكبر من اراضيها ينتظر قدوم المنقبين للبحث عن الثروات الدفينة .

الانتاج السنوي ما بين عامي ١٩٣٨ و ١٩٥٧

الكمية بالآف الاطنان	السنة
٦٥,٦١٨	١٩٣٨
٥٢١,٢١٤	١٩٣٩
٦٧٢,١٥٤	١٩٤٠
٥٧٠,٠٤٦	١٩٤١
٦٠٠,٣٥١	١٩٤٢
٦٤٥,٨٦٠	١٩٤٣
١,٠٣٤,٦٠٣	١٩٤٤
٢,٨٢٥,٩٩٠	١٩٤٥
٧,٨٩٩,٦٧٥	١٩٤٦
١١,٨١٣,٦٦٨	١٩٤٧
١٨,٧٥١,٢٧٠	١٩٤٨
٢٢,٨٢٠,٧٨٣	١٩٤٩
٢٦,١٩٦,٨٥٢	١٩٥٠
٣٦,٦٠٨,٥٨٥	١٩٥١
٣٩,٨٧٠,٨٠٥	١٩٥٢

٤٠,٨٨٧,٧٥٤	١٩٥٣
٤٦,١٧٤,٠٧٣	١٩٥٤
٤٧,٥٣٥,٠٠٠	١٩٥٥
٤٨,٦٢٢,٠٠٠	١٩٥٦
٤٩,٤٥٦,٠٠٠	١٩٥٧

النقل والتكرير

منذ عام ١٩٣٩ بدأت مصفاة صغيرة تكرر ثلاثة آلاف برميل في اليوم عملها . واثناء الحرب العالمية الثانية انشأت شركة الارامكو عند رأس تنورة مصفاة تكرر خمسين الف برميل في اليوم . وبعد ان زيدت قدرتها عدة مرات ، وصلت عام ١٩٥٤ الى مائتين وعشرة آلاف برميل في اليوم . واما القدرة العامة على التكرير في العربية السعودية فقد وصلت عام ١٩٥٥ الى ١١,١٠٠,٠٠٠ طن . ويغذي البترول السعودي الخام مصفاة ستره في جزيرة البحرين ، حيث يصل اليها في انابيب ممدودة تحت مياه الخليج . وفي عام ١٩٥٣ من بين الثلاثة والسبعين مليون برميل المكررة في ستره جاء من السعودية واحد وستون مليون وخمسة وخمسة وثمانون الفاً ووصلت الطاقة التكريرية في هذه المصفاة عام ١٩٥٥ الى ستة وسبعين مليون برميل ، وخلال اربعة أشهر بين السادس من تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ والحادي عشر من آذار سنة ١٩٥٧ قطعت الحكومة السعودية بترولها الخام عن مصفاة البحرين رداً على العدوان المسلح الانجليزي - الفرنسي على بور سعيد . والبترول الذي لا يتم تكريره محلياً يصدر خاماً اما عن طريق الخليج العربي واما بواسطة خط الانابيب عبر البلاد العربية ، هذا الخط الذي

يبلغ طوله الف وثمانمائة كيلومتر بقطر يتراوح بين ثلاثين واحدى وثلاثين بوصة . وكان يعتبر اهم خط في العالم عند انتهائه في العاشر من تشرين الثاني سنة ١٩٥١ . وهو يربط بين مستودعات حقن ابيق البترول وبين مرفأ صيدا في لبنان على البحر الابيض المتوسط ، ماراً عبر الاردن وسوريا . وكانت طاقته عام ١٩٥٤ حوالي ثلاثمائة وعشرة آلاف برميل في اليوم . وفي سته الاولى عام ١٩٥٢ نقل هذا الخط الضخم الى شاطئ المتوسط الشرقي ١٤,٢٢١,٥٨٩ طنأ من البترول الخام وبفضل محطات الضخ الجديدة ارتفعت الطاقة الى عشرين مليون طن عام ١٩٥٨ لتصل اخيراً الى خمسة وعشرين مليون طن . واستناداً الى الطاقة الأولية لهذا الخط تبين ان الشركة توفر بواسطته مبلغ خمسة وسبعين مليون دولار سنوياً . ولم يتفق نهائياً بعد على تقدير تكاليف انشاء هذا العمل ويتراوح الرقم بين مئة وخمسة وثلاثين الى مائتي مليون دولار . وعلاوة على هذا الخط الهائل . مدت شركة الارامكو شبكة واسعة من خطوط الانابيب المختلفة الاحجام لتربط الحقول البترولية بمستودعات الخزن ، ومحطات التفريغ والخط الضخم عبر البلاد العربية . وفي نهاية عام ١٩٥٣ بلغ طول هذه الشبكة خمسمائة وثلاثين كيلومتراً .

تقدم المنطقة المحايدة

تغطي المنطقة المحايدة التي تقع بين الاحساء السعودية والكويت مساحة خمسة آلاف ومائتي كيلومتر مربع جميعها صحراء فقراء ومستنقعات لا تصلح للسكن . ليس فيها سوى غناها بالبترول الغزير . والشركتان صاحبتا الامتياز امينويل في الكويت وجيني اويل في العربية السعودية جمعتا مصالحهما وبدأتا التنقيب المشترك عام ١٩٤٩ في « وفرا » الواقعة في وسط المنطقة وفي آذار سنة ١٩٥٣ اعلنت جيني اويل

عن عثورها على بئر صالحة للاستثمار . وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٤ صدرت أول شحنة من بترول المنطقة المحايدة الخام . وعلى أثر ذلك بنت جيبي اوبل ميناء بترولياً جديداً على مسافة خمسة عشر كيلومتراً الى الجنوب من حدود الكويت هو ميناء سعود . ومنذ ذلك الوقت وارقام الانتاج في ارتفاع مستمر .

طن	٨٥١,٠٠	١٩٥٤
١	١,٣٦٢,٠٠٠	١٩٥٥
١	١,٦٠٠,٠٠٠	١٩٥٦
١	٣,٤٨٠,٠٠٠	١٩٥٧

وعندما قابلت السيد جان بول جيبي في نيسان سنة ١٩٥٧ وصف لي الحالة كما يلي : ان شركتي تصدر حالياً عن طريق ميناء سعود مليون ومائتي الف برميل في الشهر وهذه الكمية التي ارفعت الى مليوني برميل في الشهر (ايلول ١٩٥٧) الأمر الذي جعل الكمية السنوية تزيد عن ثلاثة ملايين طن . وهناك خمسة واربعون بئراً تستثمر حالياً بينما ثلاثة واربعون اخرى سدت فوهاها ، في انتظار انهاء مد خط جديد للنايب ، ومصفاة للتكرير ، وذلك في شهر ايلول سنة ١٩٥٧ على الأرجح ، وخط الانابيب البالغ قطره عشر بوصات وثلاثة ارباع بين وفرا وميناء سعود يمد الآن الى جانبه خط آخر قطره ثماني عشرة بوصة والمصفاة التي ستكون طاقتها خمسين الف برميل في اليوم مستتج البترين وتنظم تصريف البترول الخام المعد للتصدير . وستعمل بالغاز الطبيعي الذي يصل اليها في انابيب قطرها ثماني بوصات ونصف البوصة .

وفي شباط سنة ١٩٥٨ اكد لي السيد جيبي ان اعمال شركته في تقدم مستمر واضاف ان حقل الانتاج يمتد على الاقل سبعة اميال طولاً على سبعة اميال عرضاً والحدود الثابتة لم تحدد بعد . والشركتان

المشاركتان تملكان معاً جميع الآبار . ولكنها تعملان منفصلتين كل
بآلاتها الخاصة بها .

وأضيف الى هذه المعلومات التي زودني بها صاحب شركة جيني اويل
ان شروط الاتفاق التي منح بموجبها الامتياز والتي قبلتها شركته في
العشرين من شباط سنة ١٩٤٩ كانت لمصلحة العاهل العربي الى
درجة مذهلة . كانت الارامكو تدفع آنذاك اثنين وعشرين سنتاً
كعائدات للحكومة السعودية عن كل برميل . وكذلك حكومة الكويت
حصلت لقاء حقوقها في المنطقة المحايدة على ثلاثة وثلاثين سنتاً ، الرقم
الذي اعتبرته الاوساط العالمية خارقاً آنذاك ، ومع ذلك قبلت جيني اويل
ان تدفع خمسة وخسين سنتاً في البرميل ، علاوة على الدفع المباشر بأرقام
مرتفعة ، والقيام بخدمات متعددة ، وقد أعطى المستقبل حقاً للسيد جيني
لأن كل العائدات البرولية قد أعيد النظر فيها فيما بعد ورفعت نسبتها .
وفي عام ١٩٥٧ أعلن السيد جيني أغنى رجل في الولايات المتحدة
الاميركية اذ قدرت ثروته بن سبعمائة مليون ومليار دولار .

الارامكو في الاقتصاد السعودي

تسهم الارامكو مباشرة بمركزها والمساعدة الفنية التي تقدمها في تطوير
العربية السعودية وعملها غير المباشر هو الآخر بالغ الاهمية .
فقد قامت الشركة بحفريات متعددة للبحث عن المياه ، وتكملت
بالنجاح : واعمال كبرى تمت بمعاونة الشركة الفنية ، واحياناً تمحت
اشرافها التام . وهكذا أنشئت شبكة أفنية الري ، والطرق ، والاعمال
الفنية ، والمرافئ والخط الحديدي عبر الجزيرة العربية ، الذي يربط ما
بين الظهران والرياض منذ سنة ١٩٥١ . وفي مجالها الخاص ، بنت
لارامكو منشآت ضخمة رائعة واستخدمت من أجلها ما لا يقل عن خمسة

وعشرين الف عامل من السعوديين كمعدل وسطي . والعمال العرب في الشركة يبلغ عددهم حوالي خمسة عشر ألفاً . ولإسكان الجهاز العامل الاوروبي الاميركي بُشِدت مدن حديثة في الظهران والدمام ورأس تنورة وقطيف . وبدأ تأثير طريقتهم الحياتية ينتشر في كل البلاد ، حتى في الحجاز ، على الرغم من الحواجز الاجتماعية ، والدينية . وأدى نشاط الشركة على الأخص الى خلق شركات وتجارا و وطنية ، قفز الكثير منها فوق نطاقه الأساسي الذي كان يقتصر على تمثيل شركة اجنبية كبرى .

ونتيجة للآثراء المتزايدة لجماعات يتسع نطاقها مع الايام ، تُوسَّع الشركات السعودية نطاق اعمالها ونشاطها . وأكثر الميادين ازدهاراً هي شركة البناء والاشغال العامة ، وتجارة الاستيراد . واذا كانت حركة البناء هي الحكم على الازدهار ، كما يقول البعض ، فإن العربية السعودية من بين أكثر البلدان ازدهاراً .

وتمثل العائدات البترولية ٨٠٪ من دخل الموازنة السعودية ، وإذا أُضيفت الرسوم والضرائب ورسوم الجمرك المستوفاة بناء للنشاط الاقتصادي الذي يقوم بصورة غير مباشرة بسبب الصناعة البترولية ارتفعت النسبة الى ٩٠٪ من مجموع ما يدخل خزانة الدولة . وفي عام ١٩٥٦ دفعت الارامكو وحدها مائتين وثمانين مليون دولار الى الخزينة السعودية . ولا شك ان الملايين اذا استخدمت استخداماً دقيقاً عادلاً أمكنها ان ترفع المعيشة شيئاً فشيئاً عند السكان ان لم تحوّل العربية السعودية الى بلد مستقل اقتصادياً .

غير ان تبذير العائدات البترولية في شؤون غير منتجة يزيد من خطورة الصفة المؤقتة الانتقالية لهذا المعدن الثمين . والى جانب نشاط يبدو كبيراً في الظاهر ، ما زال القسم الأكبر من البلاد جامداً كأن البترول لا يعنيه . والتجارب الحديثة قد علمتنا بأن هذه الاوضاع غير

المستقرة وغير المترنة تحمل في طياتها جراثيم وبذور عدم الاستقرار الذي لا يماثله خطر .

الشؤون المالية

ان التدقيق في المشروعات النادرة للموازنة التي نشرت يكشف لنا بسرعة عن النقيصة الاساسية في الاقتصاد السعودي ، فهناك مصروفات باذخة غير منتجة سببها سياسة الدعاوة والنفوذ ، ومنذ عام ١٩٣٩ والارامكو وحدها تغذي الصناديق الملكية بمبالغ متزايدة مع السنين . وهذا بيان تفصيلي في ذلك .

العائدات البرولية المباشرة بالدولارات الاميركية

السنة	المبلغ بالدولار
١٩٣٩	١٦٦,٨٩٠
١٩٤٠	١,٥٢٣,٦٤٩
١٩٤١	١,٠٧٠,٥٥٠
١٩٤٢	١,١٠٧,٣٠٢
١٩٤٤	١,٨٣٢,٠٠٠
١٩٤٥	٤,٨٢٠,٠٠٠
١٩٤٦	١٣,٥٠٠,٠٠٠
١٩٤٧	٢٠,٣٨٠,٠٠٠
١٩٤٨	٣١,٨٦٠,٠٠٠
١٩٤٩	٦٦,٠٠٠,٠٠٠

السنة	المبلغ بالدولار
١٩٥٠	١١٢,٠٠٠,٠٠٠
١٩٥١	١٥٥,٠٠٠,٠٠٠
١٩٥٢	٢١٢,٠٠٠,٠٠٠
١٩٥٣	١٦٦,٠٠٠,٠٠٠
١٩٥٤	٢٦٥,٠٠٠,٠٠٠
١٩٥٥	٢٨٠,٠٠٠,٠٠٠
١٩٥٦	٢٨٠,٠٠٠,٠٠٠

ومنذ عام ١٩٥١ ، بفضل الاتفاق المعقود في كانون الاول سنة ١٩٥٠ تلقت المملكة العربية السعودية مثل جميع البلدان العربية المنتجة للبترول خمسين بالمئة من أرباح الاستثمار البترولي . وبعد عام ١٩٥٤ أضيفت الى الاموال التي تدفعها شركة الارامكو ، تلك التي تدفعها جيبي اويل ، ومنذ سنوات ألغيت رسوم الحج العالية التي كانت تغذي فيما مضى خزانة الدولة بمبالغ طائلة ، ولكن التصدير غير المنظور الذي يرافق الحج والاحتكارات الحكومية للتنظيم المادي للحج تشكل معاً عائدات بالغة الامة . ولا بد لنا من ان نتساءل : كيف تصرف الدولة جميع هذه العائدات ؟..

ان آخر موازنة تمكنا من معرفتها هي موازنة سنة ١٣٧٤ هجرية (من ٣٠ آب سنة ١٩٥٤ الى ١٩ آب سنة ١٩٥٥) . ويتضح من تلك الموازنة ان القوات المسلحة تستهلك ٣٥٪ من المصروفات بينما التعليم لا يستهلك سوى ٣,٤٪ فقط ، والصحة العامة أقل من ٣٪ ويبلغ العجز في الموازنة أكثر من ١٥٪ واذا كان حقيقة ان الامة النسبية للاموال المرصدة للجيش ، والتعليم ، والصحة ، تتيح وحدها الحكم على عهد أو نظام ، فالنظام السعودي متأخر رجعي الى درجة مؤسفة .

في عام ١٩٥٢ تأسست بمساعدة خبير مالي اميركي الوكالة العربية

للشؤون النقدية ، والوكالة هي مؤسسة الاصدار والبنك المركزي في البلاد . ويملك عدد كبير من البنوك الاجنبية فروعاً في جدة والدمام ، ومن بينها بنك الهند الصينية والبنك البريطاني في الشرق الاوسط . وقد أدى تهريب رؤوس الاموال الطائلة الى الخارج في ايار سنة ١٩٥٥ الى انشاء مؤسسة مراقبة القطع . ومنع اخراج رؤوس الاموال ، وأرغم اولئك الذين أخرجوا أموالهم على اعادتها . وقد ذكرت صحيفة (لوموند) في هذه المناسبة الرقم الخيالي للاموال التي اخرجها من السعودية عبدالله السليمان وزير مالية ابن سعود السابق ، بمساعدة نجيب صالحه ، امين خزانة المملكة السعودية منذ سنة ١٩٢٨ ، وقد أقيّل عبدالله السليمان من هذا المنصب بناء لرغبة العاهل الجديد ، في الثالث من ايلول سنة ١٩٥٤ ثم فتح تحقيق لمعرفة كيفية صرف اموال الدولة طيلة عهد الملك عبد العزيز وكلف القيام بهذا التحقيق مفتشون ماليون سوريون ، استقدموا من سوريا خصيصاً لهذه الغاية . وبعد ان أعيد تنظيم وزارة المالية من جديد دجّت بوزارة الاقتصاد الوطني وسلمت الى الشيخ محمد الصبان .

الحرف والنقل

تخفّض ضخامة الارامكو الى نسب زهيدة أهمية القطاعات الاقتصادية التي ليس لها علاقة بالبترول . اننا نجد في المملكة السعودية شركة اجنبية أخرى لاستثمار المعادن ، ظلت تستثمر حتى السنوات الاخيرة مناجم الذهب الواقعة في « مهد الذهب » على مسافة اربعمائة كيلو متر الى الشمال من جدة . وكانت الشركة العربية السعودية للتنقيب عن المعادن تنتج خام الذهب والنفضة الذي تجري تنقيته في الولايات المتحدة الاميركية . ولكن فقر المنجم كان السبب الذي دفع الشركة الى هجره . وهناك مناجم أخرى للمعادن الثمينة اكتشفت منذ مدة طويلة ، ولكن يجب ان تكون

فقيرة لتبرر تقاعس الشركة عن استثمارها . وهناك أيضاً مناجم للباريت والجبس والملح والحديد لم تستثمر حتى الآن .

وفي بعض المدن والواحات ، ما زالت هناك صناعات يدوية تقاسي اليوم صعوبات ضخمة قد تقضي عليها بفضل تدفق المواد والآلات والأدوات المصنوعة آلياً في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية واليابان . وصناعة اللؤلؤ كانت فيما مضى مزدهرة على شواطئ الخليج العربي ومصائد الاسماك التي ما زالت ناشطة حتى اليوم في الخليج والبحر الأحمر تشغل سكان السواحل الى جانب صناعة وبناء المراكب العربية .

غير ان كل هذه النشاطات محدودة ومحلية ، ويجب ان نذكر أيضاً صناعة الزوايا الحجرية التي تبعت النهضة العمرانية . وفي الحرج (نجد) أنشأت شركة فرنسية مصنعاً للذخيرة دشنه الملك شخصياً عام ١٩٥٤ .

ان اعتماد النقل الآلي يفرض وجود طرق معبدة في بعض مراحلها على الأقل . وكذلك محطات وقود ومستودعات تصليح ، الامر الذي لا يتوفر بكثرة في المملكة السعودية . وبين منعطفات التلال الرملية نجد الشاحنات ذوات الدواليب العريضة التي تتجنب الغرق في الرمال قد أصبحت أكثر شيوعاً من الجمال سفن الصحراء فيما مضى . وتجارة السيارات الخاصة تعتبر من أكثر التجارات رواجاً وكسباً . والسماء السعودية يملأها هدير الطائرات اذ ان الطائرة هي افضل وسيلة للنقل في هذا البلد الشاسع . والمستأجرون الأميركيون لمطار الظهران يعلمون السعوديين ، كما ان سلاح الطيران السعودي يرسل ضباطه للتخصص في شؤون الطيران في الولايات المتحدة الاميركية . وفي كل أسبوع تقريباً منذ عام ١٩٥٤ يشهد مطار الظهران آلاف الطائرات من مختلف الاحجام والاتحاء تحط فيه .

وفي مجال النقل أيضاً يصل الخط الحديدي الدمام بالرياض . وهذا الخط ينتظر له ان يعبر المملكة من الخليج العربي الى البحر الأحمر .

وهو حالياً يربط الاحساء بالعاصمة في قلب نجد كل يوم . وفي الناحية الثانية من البلاد يبحث المسؤولون في اعادة بناء الخط الحجازي الذي سيتصل بالخط النجدي . وقد اعلن عنها مئات المرات ؛ ويسدو ان الصفة الدولية لهذا الخط الذي يفيد على صعيد الحج وغير ذلك ، تثير بعض المشاكل السياسية . وفي انتظار ذلك لم يعثر نسبة الحجاج القادمين الى الحجاز كل سنة أي هبوط ، والشركة العربية للنقل في السيارات تحتكر نقلهم في سياراتها وشاحناتها . والنقل الجوي ، وشركة النقل في السيارات ، والشركة البحرية التي تملك بعض البواخر وناقلة بترول حولتها ستة وأربعين الف طن ، كلها احتكارات للدولة ، والمواصلات التلغونية والتلغرافية ، ومحطات البث الاذاعي هي الاخرى مؤمنة كتوزيع الكهرباء الذي امتد في السنوات الأخيرة الى كل المدن السعودية . وعلى الرغم من هذا النشاط الحديث ما زال هناك طائفة هامة من السكان البدو والحضر ممن يستمرون في العيش البدائي كما كان اجدادهم منذ فجر التاريخ .

الزراعة

ان الزراعة كما هو معروف ترتبط دائماً بالماء ، لذلك تقتصر على بعض الواحات الكبرى والادوية ومستعمرات « الاخوان » الزراعية : والمزارع النموذجية التجريبية التي أنشئت منذ بضع سنوات تنشر اليوم نتائج تجاربها بشأن الطرق الحديثة للري عن طريق مياه الجوف . وهناك في المملكة السعودية يوجد خمس مناطق زراعية ، في الاحساء واحة المحفوف الكبرى بينايعها السبعة الغزيرة تنتج الارز والثمار المختلفة الى جانب عدة أنواع من التمور. وقطيف والدمام هما أيضاً مركزان زراعيان

في المنطقة نفسها . وفي نجد تنتج الواحات الكبرى ومستعمرات الاخوان الحبوب والثمار والخضار المتنوعة وكذلك التمور . وفي الحرج بالقرب من الرياض أنشئت اول مزرعة نموذجية تجريبية ناجحة في البلاد وذلك عام ١٩٤٥ . وعسير الحصبة بمزروعاتها المجللة ، ونجران الخضراء هما من المناطق المحظوظة التي تنتج جميع انواع المزروعات بما في ذلك قهوة مخا اليمنية ، وأما تهامة فيمكن ان تكون شديدة الخصب في المناطق الممطرة منها ، وتعطي منتوجات البلدان الحارة كالقطن والذرة والتبغ والتمور . وفي الحجاز اخيراً تنتج الواحات الكبرى والادوية الكبيرة التمور والحبوب . والثمار والخضار . وقد أنشئت هناك بعض المزارع النموذجية التجريبية ، وخاصة في وادي فاطمة . والمعروف ان الحجاز كان فيما مضى مزروعاً أكثر مما هو اليوم .

ويُستهلك الانتاج الزراعي الذي لا يكفي على كل حال كله داخلياً ومنتوجاته الرئيسية هي التمور والحبوب المتعددة الانواع ، ويبدو انه كتب على العربية السعودية ان تجوع اذا ما وجدت نفسها مضطرة الى الاعتماد فقط على ما تنتجه داخلياً من مواد فائقة الضرورة . وقد شعر السعوديون بذلك اثناء الحرب العالمية الثانية ، ومنذ مدة والانجليز يتعهدون فرق مكافحة الجراد ، كما انه في عام ١٩٤٢ أرسل الرئيس روزفلت الى العربية السعودية اولى البعثات الزراعية الاميركية المتعددة ، هذه البعثة التي كانت بعثة دراسة ومعونة سريعة . وأما البعثة الثانية التي قدمت الى السعودية عام ١٩٤٤ ، فقد اهتمت خاصة بشؤون السري : وأنشئت في الحرج اول مزرعة نموذجية تجريبية . وقد توصلت البعثات المتتالية الى النتيجة نفسها ، وهي تقضي بضرورة توسيع المناطق الزراعية عن طريق الري . ومنذ ذلك الحين والعربية السعودية تستدعي الخبراء العالميين من الهيئات العالمية كافة لا سيما المنظمة الدولية للتغذية والزراعة . غير ان عمل هذه المنظمة يركز عموماً على المثل القائل : « مساعد نفسك

تساعدك السماء . والعربية السعودية البلد المسلم ما زالت تطبق على الأرجح مبدأ الجبر والقدر المكتوب .

وقد بذلت بعض الجهود مع ذلك ، من أجل تحسين الوسائل والانتاج في الزراعات الغذائية الأكثر شيوعاً ، وعلى الاخص النخيل . روى لي خبير في هذا الشأن ان بعض الاجراءات البالغة البساطة اذا ما عرفت ونفذت أناحت مضاعفة الانتاج ضعفين أو ثلاثة أحياناً ، مع تحسين النوع في الوقت نفسه . وهناك زراعات جديدة أدخلت في نطاق التجربة أولاً ثم عُممت على مدى واسع بعد نجاحها . ولكن كل تطوير لاحق يبقى متقيداً بشروط الري . وكما قلت سابقاً أسهمت الارامكو اسهاماً فعالاً في تطوير الزراعة بحفرها عدداً كبيراً من الآبار ، وقدمت خبراء وجيولوجيين هم تحت تصرف الحكومة السعودية في كل وقت ، وأنشئت مئات الكيلومترات من أقنية الري ، وأدخلت الآلات والاسمدة الى البلاد وشاع استعمالها عن طريق المزارع التجريبية . ووسائل الزراعة الحديثة وتربية المواشي كانت ولا تزال محور عمل المزارع التجريبية التعليمي .

ومع ذلك في نطاق الزراعة نلاحظ وجود اهمال مذهل ، ففي الحجاز مثلاً لوحظ منذ مدة طويلة وجود خراب في السدود الصغيرة ، وبعض السدود الكبيرة على مسافة مئات الكيلو مترات بين المدينة المنورة ونجران واصلاح هذا الخراب كما كتب ريشارد سنجر عام ١٩٥٤ ليس عسيراً كما انه ليس باهظ التكاليف ويشكل وسيلة لرفع مستوى المعيشة عند سكان العربية السعودية .

ومديرية الزراعة التي اصبحت وزارة موجودة مع ذلك منذ عام ١٩٤٨ واذا درسنا المستندات الرسمية تبين لنا ان همها الاوحد انما هو زيادة المساحات الزراعية بتوسيع شبكة الري واستصلاح الآبار والسدود وبناء الأقنية والوسائل الاخرى التي تساعد على الاستعاضة عن الأمطار :

ولكن اعتمادات الزراعة ضئيلة في الموازنة والمهمة ضخمة في هذا البلد الشاسع الجاف في أكثره ، والمشروعات الكبرى غير قابلة التحقيق : لذلك من الأفضل اللجوء الى تحقيق عدة مشروعات صغيرة لتحسين الحالة ، والأفضل بكل تأكيد ان ترصد اموال لذلك ، وهذا العمل خير من استيراد كميات متزايدة مع الزمن من المواد الغذائية ومن الممكن مثلاً استخدام الآلة في حفر الآبار وتوزيع المضخات الآلية بفضل نظام وضعته الدولة للقروض ، سبق له وانا توسيع نطاق الاراضي المروية. ان اجراءات كهذه ليست عسيرة التحقيق ومن المفيد الاكثار منها . ومهما يكن من امر ، فإن تطوير البلد زراعياً يصطدم بطبيعة البلاد الجافة ويبدو لي من المستحيل ان تستطيع العربية السعودية يوماً ان تصل الى درجة الاكتفاء الذاتي في حقل الانتاج الزراعي . وهذا البلد ليس متخلفاً تماماً كما تدل هذه الكلمة ، بل هو اعجز من ان يتخطى في تطوره بعض الحلول في امكانياته المعروفة . الامر الذي يجب الا يمنع مع ذلك الاستمرار في اعمال التحسين الجزئية .

مركز تربية المواشي

لقد سبق لي وشرحت الى انه حسب التقديرات المتفق عليها اكثر من ثلث السكان ما زالوا يعيشون حياة البداوة المتنقلة . ودون ان نتوقف عند التمييز بين درجات البداوة اقول ان عدد البدو هو في حدود المليونين ، وتربية المواشي هي الشاغل الاهم والثروة الرئيسية ، والسبب الاساسي للحياة عند البدوي ، والبدوي الحقيقي يحتاج الى قليل من الاشياء هي القهوة والسكر ، والرز والتمر والقماش الناعم ، الى جانب ما تعطيه اياه مواشيه .

واكثر الزارعين الحضريين كانوا بدوياً فيما مضى ، يتعاطون ايضاً

تربية المواشي في مختلف انواعها . وتربية الدواجن والنحل . وتربية النحل هي قديمة وتقليدية في اكثر مناطق الجزيرة العربية ، وكان العسل ولا يزال مرغوباً عند العرب .

ويربى الغنم والماعز بكثرة للاستفادة من حليبه ولحمة وصوفه او شعره وجلده ، والابل التي لم تعد الوسائل الضرورية للنقل او الحرب ما زالت تربي من اجل حليبها ولحمتها . وتستخدم للنقل . اما الابقار فتشاهد عند الحضريين في الواحات والقرى .

وقد حاولت البعثات الزراعية والمزارع النموذجية ومراكز التجارب التي انشأها الخبراء الاجانب ان تدخل تحسينات الى طرق تربية المواشي ، وبصورة خاصة في نطاق تحسين النسل . ويمكن ان نأمل في هذا المجال ان يؤثر ذلك من المربين لدى المزارعين الحضريين . اما البدوي ، وهو الهدف اساساً في هذا المجال فسيبقى مدة طويلة بعيداً عن التأثير في هذا النطاق .

وبكلمة موجزة يمكن القول ان الثورة الاقتصادية لم يشعر بها البدوي بعد مباشرة . وما زال في مرحلة الدهشة ، بل الذهول والتعجب ، ازاء التقدم التكنيكي للحضارة الصناعية .

ويروي اولو الامر خاصة المسؤولون في شركات البترول كثيراً من الغرائب مما يقوم به البدو من اعمال بعد تحويلهم الى عمال فنيين على الآلات . وفي ختام هذا الفصل ادع الى التفكير في هذه الارقام ؛ ان في العربية السعودية خمسة عشر الف عربي تشغلهم الارامكو ، واكثر من مليوني بدوي . ومن تربية المواشي يعيش هؤلاء دون ان يعرفوا البترول الا بالسمع ، وربما لم يسمعوا به .

مملكة الحق الإلهي على المسرح العالمي

لقد استطاعت المملكة العربية السعودية على الرغم من كونها متخلفة، وقبل اكتشاف البترول في جوفها ان تفرض نفسها على الصعيد الدولي منذ نشوئها . واليوم يفسح لها البترول والاسلام دعائماها المتيتان مركزاً تزداد اهميته مع الايام على المسرح الدولي . واذا كان الملك عبد العزيز قد اتبع مدة طويلة سياسة حذرة ومتحفظة ، فإن خلفه سعود قد عوض عن ذلك اذ يتبع في السياسة الدولية نهجاً اكثر حيوية وما ذلك الا لأن الظروف تغيرت . وان جراسة الاماكن المقدسة التي يتطلع اليها اكثر من اربعائة مليون من البشر ، وخمسة وثلاثين مليار برميل من البترول ، ان هاتين الميزتين تحولان سعود حق التكلم عالياً ، ولكن تأخر البلاد المربع وضعفها النسبي يجعلان من هذا السلوك تناقضاً غريباً . وكما هي الحال في جسم الانسان يفرض تركيب الامبراطورية السعودية في داخل الدولة نفسها صفات تبرز في السياسة الخارجية .

اذا تأملنا جيداً مصور المملكة العربية السعودية تبين لنا ان ونجداه تقع

بين الارض المقدسة في الحجاز والمنطقة الصناعية في الاحساء في طرفي الجزيرة . وهذا الاقليم الذي يعتبر مهد الوهابية والاخوان هو نواة المملكة ونقطة الثقل في الميزان بما يحمله من مركز قوي . فنجد هي التي توازن وتحافظ على التوازن بين الحجاز حيث يتجسد التمايل والاحساء المشدودة بقوة لا ترد نحو المدينة . في قلب هذه البلاد المرتفعة اقام عبد العزيز عاصمته في الرياض محور الامبراطورية ، حيث يمكنه ان يشرف على المقاطعات المحتلة . من هذه العاصمة البدوية على سعود ان يقارن ويوازن بين المصالح التي تفرض عليه ان يقيم علاقات طيبة مع المارقين وبين ايدلوجية عربية اسلامية تزداد عدوانها مع الايام لكل تحالف مع الغرب .

والمشكلة ليست جديدة . ولكنها لم تطرح على اشدها الا في السنوات الاخيرة .

حتى الحرب العالمية الثانية ، كان الملك بماطل بشأن صداقة المصلحة مع بريطانيا التي حملته على ان يعترف بمركزها الممتاز حول الجزيرة العربية . وابن سعود الحريص على عداواته وصداقاته معاً كان لا يزال يسير على سياسة شيوخ الصحراء عندما جاء رجال البترول الاميركيين ، وقد جرنه واقعية العمل الكبير الى اقامة علاقات تجارية متشابكة مع الولايات المتحدة الاميركية . شيئاً فشيئاً خف النفوذ البريطاني ، حتى جاء اليوم الذي تخلص فيه عبد العزيز من كل ما يربطه بهذه الدولة :

ويجب ان لا ننسى قضية فلسطين من جهة ، والاصرار البريطاني على صيانة استقلال امارات الخليج وحماية العروش الهاشمية في العراق والاردن من جهة ثانية ، فإن ذلك شيئاً فشيئاً عمل على ابعاد العاهل السعودي عن البريطانيين ورفض صداقتهم . واتساع الرقعة التي توطدت فيها المصالح الاميركية التجارية الصرف ، كان من شأنه ان يؤدي الى

تقوية نفوذ الولايات المتحدة الاميركية في الوقت نفسه . والاميركيون بكل هدوء لم يفوتوا ذلك دون ان يدعوا وجود نفوذ سياسي حقيقي لهم ، ولا يمكننا مطلقاً ان نتجاهل الارتباط المتزايد مع الايام الذي يربط الاقتصاد السعودي بالولايات المتحدة الاميركية .

وعلى الرغم من هذا الارتباط ، او ربما بسببه - ارادت العربية السعودية ان تبرهن بمواقفها الصلبة التوية رفضها لكل تحالف صريح مع الغرب ، وهكذا بقيت سياستها الخارجية على مبدئين اساسيين : هما التضامن العربي المصبوغ باللون الاسلامي ، والحياد الذي فرض نفسه ، وقد عملت المؤامرات والدسائس الانجلو اميركية من اجل اقامة حاجز وهمي عربي في وجه السوفييات في دفع السعوديين الى اتخاذ هذا القرار الذي لا بد منه . وكيف يمكن التدخل في نزاع لا علاقة مباشرة فيه لا للاسلام ولا للعربية السعودية ؟ وهذا الرفض بالذات هو الذي ادى الى رفع العربية السعودية الى مصاف الدول المسموعة الكلمة.

والعداء للاستعمار ، على الرغم من انه اعلن مراراً في عهد الملك الراحل عبد العزيز بقي على العموم آنذاك في ضمير الغيب . واما ابنه وخلفه سعود فقد جعل منه وسيلة للتضال حتى لا يبدو متخلفاً عن عالم باندونغ .

في عام ١٩٥٤ استطاع جون فيليبى بحذافة ان يصف مركز العربية السعودية الدولي والنتائج الرئيسية المترتبة على ذلك ، فقال : ان هذه المملكة كبلد اسلامي عربي بارز على المسرح الدولي لا تتمكن سياستها الخارجية إلا ان تتجاوب وتحتل مركز الصدارة بين الدول الذي اصطلح على تسميتها «متخلفة» والاحداث التي نجمت عن الدبلوماسية الانجلو اميركية ، قد اعطت حقاً لفيلبي ، ونتائجها كانت ترسيخ السيادة الحيادية ، مع التبنّي العلني للمبادئ الخمسة المعادية للاستعمار ، ومعارضة الاحلاف مع الغرب ، الى جانب التقرب الحذر المتحفظ من مصر زعيمة

الدعوة العربية :

وفي سنة ١٩٥٧ رأت الرياض نفسها حائرة بين القاهرة وبغداد ،
وما ذلك الا لأن السياسة الخارجية السعودية لا تخرج عن هذا النطاق :
الاسلام والبرول .

الخطوط البارزة

دون ان ادخل هنا في تفاصيل تاريخ دبلوماسي يعتربه الغموض نسبياً
عتقد انه من الاهم محاولة كشف الخطوط البارزة في السياسة الخارجية ،
او بكلمة اخرى اسباب ثباتها تحت ستار التلون .

كانت العربية السعودية قبل البرول دون شك تدور في نطاق النفوذ
البريطاني . وعملياً في حقبة معاهدة جدة سنة ١٩٢٧ التي اضفت على
المملكة صفة دولية ، كان المتحدث الوحيد الذي يمكنه ان يتحدث
معهها باسم كل جيرانها (ما عدا اليمن) هو بريطانيا . وفي قة قوتها
في الشرق الاوسط كانت الامبراطورية البريطانية تشرف ، إن عن طريق
الحق او الامر الواقع ، على الشؤون الخارجية للكويت والبحرين وقطر ،
ومشيخات شاطئ القراصنة ، وسلطنة مسقط وعمان ، وسلطنة
حضرموت والعراق والاردن ، والامر الاهم هو ان الجارين اللذين يقفلان
حدود الجزيرة العربية من الشمال كانا تحت سلطة الهاشمين الذين طردهم
ابن سعود من الحجاز فتلقفتهم بريطانيا المتدبة ، ووضعتهم على عرش
العراق والاردن . وخطوط الاتصال البرية الوحيدة مع المتوسط من
العربية السعودية يجب ان تمر في اراضي فيصل وعبد الله بن حسين
شريف مكة سابقاً .

ويسبب تجريدهم من نفوذهم الموروث الثمين كحماة للديار المقدسة
حمل الهاشميون وما زالوا لآل سعود في صدورهم حقداً دفيناً ، مما جعل

ابن سعود مدة طويلة يتخوف من محاولة هاشمية لاستعادة الحجاز ، وعلى الرغم من ذلك أدى الضغط البريطاني المستمر على الطرفين الى توقيع ميثاق الاخاء ، والتضامن العربي عام ١٩٣٦ بين العراق والسعودية . وقد تضافر انطلاق الملك الشاب غازي ، وذكاء ابن سعود السياسي لوضع حد ظاهري للتزاع مع العلم بأن لا حقد هؤلاء خبا ولا حذر أولئك زال . والمشاكلة العنيفة المستمرة بين البيتين السعودي والهاشمي تجد تفسيرها في معارضة السعوديين الشديدة لمشروع الهلال الخصيب (سوريا الكبرى) الغالي على قلب الانجليز . ان دمج العراق وفلسطين وسوريا ولبنان في دولة واحدة على رأسها أحد الهاشميين ، كما حلم بذلك جهابذة السياسة البريطانية ، من شأنه أن يضع العربية السعودية في مواجهة جار أقوى منها . الامر الذي يحمل كثيراً من المخاطر لابن سعود . والوحدة العربية او الاسلامية كما يفهمها ويدعو اليها آل سعود يجب أن تتم على أيدي سادة الرياض ولصالحهم دون سواهم . ولذلك لا يمكن أن يباركوها مطلقاً اذا كانت ضدهم .

الصراع السعودي اليمني

في سلسلة الفتوحات الرائعة كان عبد العزيز يعرف أين كان يجب أن يتوقف . واعتداله وتبصره السياسي برزا بقوة اثناء التزاع السعودي اليمني . ففي عام ١٩٣٣ أعلنت اليمن الحرب على المملكة السعودية من أجل السيطرة على عسير ونجران . وعلى حدوده الجنوبية . كان الامام يحيى في نفس الوقت يواجه صعوبات مع البريطانيين في محمية عدن ؛ ولم تمنح مدة خمسة وأربعين يوماً حتى كانت القوات السعودية بقيادة الامير فيصل قد وصلت الى ميناء الحديدة . فأسرعت اليمن في اعلان قبولها للشروط المعروضة في «ابها» في السابع عشر من شباط سنة ١٩٣٤ .

وعلى الرغم من تفوقه العسكري ، قَبِلَ ابن سعود سحب قواته من تهامة اليمنية . وهكذا تم توقيع اتفاق « ابها » في العشرين من حزيران سنة ١٩٣٤ وقبلت أن تعترف بالسيادة السعودية على الاراضي المتنازع عليها ، وأن تشكل معها جبهة اقتصادية سياسية موحدة .

ان ميثاق « ابها » هو تجسيد لسياسة التوازن والتحكيم بين الشعوب العربية والاسلامية ، هذه السياسة التي سيسر عليها ابن سعود مدة طويلة . وفي غداة هذا الاتفاق ارتبط عاهلاً مملكتي الحق الالهي اللذين يرأسان حكومتين مركزيتين في الجزيرة العربية بصدقة زادتها الايام وثوقاً على الرغم من التباين الديني (الزيدية والوهابية) والقبلي (عرب الشمال وعرب الجنوب) . وفي عام ١٩٤٨ عندما قتل الامام يحيى على يد أحد الطامعين قررت مساندة ابن سعود عودة العرش اليمني الى ولي العهد الشرعي . وفي عام ١٩٥٥ أيضاً فشل انقلاب جديد في اليمن أيضاً بفضل المساندة السعودية . وهذه المرة هب سعود بن عبد العزيز هو بنفسه لمساعدة الامام احمد بن يحيى :

يستطيع المراقب الأجنبي أن يلاحظ أن دهاء ابن سعود هو الذي دفعه الى التحالف مع أعدائه التقليديين الهاشميين في العراق والزبيديين في اليمن . وهذه السياسة ان هي إلا استمرار لسياسة التحالف مع القبائل التي انتهجها في البدء على الصعيد الداخلي ، ثم نقلها فيما بعد الى الصعيد الدولي ، هذا الصعيد الذي لا يزال غامضاً في العربية الصحراوية ، وحتماً يجب الاعتراف أن أعمال العاهل الراحل تحمل البراهين المتعددة على رغبته المستمرة في توحيد الشعوب العربية . بل ان طموحه كان يذهب الى ابعد من ذلك اذ كان يستهدف تعريب الشعوب الاسلامية بأسرها .

الواقع الاسلامي والحج

تأخذ الاعمية الرئيسية للواقع الاسلامي شكلا حسياً في الحج السنوي الى مكة المكرمة والمدينة المنورة . والحج الذي يؤديه مئات الالوف من المسلمين سنوياً الى الحجاز يؤكد مركزه الفريد . ومن ثم مركز العربية السعودية لدى فريق كبير من البشر ، خاصة في قارة آسيا . ويقول « فنسان مونتي » الاختصاصي في الشؤون الاسلامية : « ان الحج يهدف الى توحيد وتركيز السياسة الاسلامية . »

ودون أن أذهب مع « مونتي » الى هذا الحد اعتقد انه لا يجوز التقليل من أهمية الاتصال الذي تحتقه هذه اللقيا السنوية بين مختلف شعوب الديار الاسلامية . منذ عام ١٩٢٦ سعى ابن سعود الى تنظيم الاجتماعات العفوية للقادة والاعيان المسلمين بالدعوة الى مؤتمر اسلامي يعقد في مكة . وكثيراً ما ساد الاعتقاد ان ابن سعود كان يهدف الى اعلان نفسه خليفة على المسلمين . ولكن البرودة التي تلقى فيها العالم الاسلامي هذه الدعوة الى المؤتمر ، جعلت عبد العزيز يتخلى عنه وعن مطالبه بشأن الخلافة . في الوقت نفسه عادت الفكرة الى الظهور عام ١٩٥٤ عندما راودت سعود ، فعقد المؤتمر الاسلامي وتمخضت عنه سكرتارية عامة دائمة . وبدت مصر كأنها تريد أن تتولى القيادة في هذا المجال ايضاً ، لانها استحصلت لاحد ابنائها البارزين الزعيم انور السادات على مركز السكرتير العام للمؤتمر الاسلامي . ويقظة العالم الاسلامي ، الآسيوي ، والافريقي تشكل قرينة جديدة لنجاح هذه الحركة .

وحسب الارقام شبه الرسمية ، بلغ عدد الذين ادوا فريضة الحج عام

١٩٥٣ حوالي نصف مليون مسلم .

وفي عام ١٩٥٥ ارتفع هذا العدد الى سبعمائة الف :

ان الاسلام هو دين اجتماعي شامل يدخل حتى في دقائق تفاصيل الحياة اليومية . وهو علاوة على ذلك دين المساواة في الاصل . من الاطلسي الى الهندوسي ، يحو الايمان الاسلامي جميع الفوارق في اللون واللغة وهو لا يقل قوة ، ان لم يكن في بعض الاحيان أقوى من أي شعور قومي . ففي كراتشي كما في الرباط ، استقبل سعود بهتافات «يعيش ملك الحجاز » كحارس للاماكن المقدسة . وإذا كان لم يصل بعد الى تجسيد صفة الخلافة وتحقيقها فالملك سعود هو أقرب ما يكون اليوم الى منصب امير المؤمنين الذي حرم منه مسلمو اليوم :

فرنسا والعربية السعودية

كانت فرنسا من بين البلدان الاولى التي سارعت عام ١٩٢٥ الى الاعتراف بابن سعود ملكاً على الحجاز ، كما كانت أول من رفع عام ١٩٢٩ قنصليتها في جدة الى رتبة مفوضية . وهي اليوم في رتبة سفارة : ومنذ الثاني والعشرين من أيلول سنة ١٩٢٥ عقدت فرنسا مع السعوديين اتفاقاً تجارياً باسم دول المشرق التي كانت خاضعة للانتداب الفرنسي ، وتشبهاً بالعربية السعودية وقفت فرنسا موقفاً منوئاً صلباً للمشروعات البريطانية كمشروع « الهلال الحبيب » او سوريا الكبرى في ظل الهاشميين . غير أن هذا الموقف وحده لا يكفي مع ذلك ، لتفسير العلاقات الحسنة الفرنسية - السعودية .

ان عرب الصحراء يتميزون باندفاعهم وراء عواطفهم ومشاعرهم . وطالما أشار الملك عبد العزيز الى تبادل الرسائل بين جده ونابليون الاول أثناء حملة الامبراطور على المشرق . وفي كتابه عن ابن سعود يشير بنوا

ميشان الى بعثة فرنسية برئاسة « لاسكاري » ارسلها نابليون الى سعود عام ١٨١١ . وبناء على طلب امبراطور الفرنسيين هاجم الوهابيون تركيا في منطقة بلاد ما بين النهرين ، ولكن فشل الجيوش النابوليونية واندحارها أدبا الى انتهاء التحالف الفرنسي - العربي . ومهما تكن نسبة الصحة في هذه الوقائع فإن الاعجاب الذي يكنه ابن سعود « للامبراطور الكبير » كان السبب في خلق شعور الصداقة نحو فرنسا ، الانعكاس البعيد لامجاد الاسطورة النابليونية . وبالنسبة الى فرنسا يجب أن نتذكر أن مصالحها المتعددة الهامة في أرض الاسلام ، في شمال افريقيا ، في افريقيا السوداء وفي المشرق فيما مضى ايضاً ، تعطي أهمية خاصة لعلاقتها الطيبة مع سادة الحجاز .

واذا كان ممثلو السعودية في هيئة الامم يظهرون احياناً بعض العنف في خطبهم فإن للضرورات والظروف احكامها والعلاقات الدبلوماسية بين البلدين بقيت جيدة بل ممتازة فترة طويلة من الزمن : وفي عام ١٩٥٥ عندما عين الامير طلال بن عبد العزيز سفيراً لبلاده في باريس وقدم اوراق اعتماده للرئيس كوتشي ، كان في امكانه ان يحنى نفسه بالانفاق التجاري الذي كان قد وقع حديثاً بين فرنسا والسعودية ، والذي قصد منه تسهيل الدخول الى الاماكن المقدسة بالنسبة للافريقيين المسلمين سكان المستعمرات الفرنسية . واثناء السنوات الصعبة بالنسبة للعربية السعودية ، في ايار ١٩٤٩ الى تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ كانت فرنسا ممثلة في جدة بسفير ممتاز عرف كيف يرعى امور بلاده في مهمة بالغة الدقة . وبكفي ان نتذكر ان تلك السنوات كانت سنوات التوتر الشديد في شمالي افريقيا في تونس اولاً ، ثم في المغرب ، واخيراً في الجزائر ، واصبحت السياسة الفرنسية موضع نقد شديد وعنيف من قبل جامعة الدول واعضاءها ، ومع ذلك تمكن السفير « جورج غيرو » من ان ينجح في مهمته العسيرة التي كانت تقضي بأن يجيب على طلبات الايضاح والتفسير المقدمة من قبل

العاهل السعودي . وقام باتصالات مستمرة بشأن الاجراءات المتخذة من قبل الادارة الفرنسية في تونس او المغرب ، ومن حين الى آخر كان رئيس البعثة الدبلوماسية الفرنسية يشير الى اللياقة التي كان ترافق الاتصالات السعودية ، والمشارع الودية التي كان الملك الراحل يبدئها نحو فرنسا . واخيراً بعد مشروع الهلال الحبيب وسوريا الكبرى ، التقت وجهات النظر الفرنسية والسعودية عند قضية اخرى اساسية في قضايا الشرق الاوسط هي قضية حلف بغداد ، والنتائج الوخيمة لهذه المشروعات البريطانية لم تنفك تؤكد سلامة الاسس التي قامت عليها المعارضة لهذه السياسة من جانب فرنسا والسعودية ومن جانب حزب العمال البريطاني . ومع ذلك في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ ادى العدوان على بور سعيد الى قطع العلاقات الدبلوماسية الفرنسية السعودية .

التسلل الاميركي

اذا كان عبد العزيز بن سعود قد بقي اميناً لصداقاته حتى مماته ، فلم يكن في استطاعته الى جانب ذلك ان يتحاشى تزايد النفوذ الاميركي . وقد حصل اول تحول في سياسته الخارجية عام ١٩٥٠ . في ذلك الحين رأى الملك الكبير قواه ومداركه يلحقها الوهن ، فدعا ابنه الذي سيخلفه الى تحمل بعض المسؤوليات في ادارة شؤون المملكة . وفي تلك السنة ، في الثلاثين من كانون الاول ، اتفقت الارامكو مع الحكومة السعودية على تقاسم ارباح البترول مناصفة ، وكان الانتاج البترولي قد وصل الى ستة وعشرين مليون طن ، وكانت هرب فلسطين قد انتهت الى نكبة وفشل مرير من جانب العرب ، ودخل الشرق الاوسط بأسره في مرحلة الاضطرابات وعدم الاستقرار . آنذ منحت حول الجزيرة العربية

امتيازات بترولية جديدة ، وبعضها كان منتجاً .
وأثارت التنقيبات المستمرة كثيراً من النزاعات على السيادة في الصحراء
على حدود غير واضحة ، وكانت قضية البريمي من ابرز هذه القضايا ،
اذ انها ارتدت طابع العنف بعد وقت قليل ، وقضت على آخر اممل
للصدقة البريطانية - السعودية .

وفي مستهل عام ١٩٥١ اظهر تأميم الدكتور مصدق شركة البترول
البريطانية الايرانية الالهية البالغة التي يحتلها بترول الشرق الاوسط ، في
الاقتصاد الاوروبي والعالمي ، واصبح النزاع ظاهرة قوة تحمل الثروة
للبلاد العربية . وعلى الضفة الغربية للخليج العربي ، كان على الكويت
والسعودية ان تضاعفا انتاجهما البترولي للتعويض عن النقص الذي نشأ عن
توقف تدفق البترول الايراني الذي يبلغ معدله ثلاثة وعشرين مليون
طن في السنة . وعلى الصعيد العالمي بنفت الحرب الباردة اشدها ، اذ
وصلت حرب كوريا ذروتها ، والمانيا كانت تبذل اقصى جهدها
لاستعادة وحدتها . وفرنسا كانت تواجه احلك ايامها في الهند الصينية .
وعلى الرغم من ارادتها اضطرت العربية السعودية ان تتخذ موقفاً
معيناً في قضايا كانت تود ان تبقى في معزل عنها . وفي طيلة حياة
الملك عبد العزيز كان الخط العام للسياسة السعودية الخارجية يقضي بايجاد
توافق بين الصداقات التقليدية وضرورة اثبات الوجود في العالم الحديث .
ودون ان تكون مهياة لدورها الجديدة رأت المملكة العربية نفسها تدفع
دفعاً بتطور الاحداث الى المسرح العالمي ، وعلاوة على ذلك كان هناك
السياسة العربية الاسلامية التي لا يمكن التخلي عنها . وقد بقيت الاساس
الائت للسياسة الخارجية السعودية . ومبدأ الاسلام كوطن يرتكز على
العروبة في معناها الخاص المحدد من شأنه ان يقوي مع الايام المعارضة
للنظام القائم . وكذلك التقاء المصالح او تنافرها بين البلدان المنتجة
ميؤثر ايضاً بدون انقطاع في المواقف الدبلوماسية التي يجب اتخاذها .

وهكذا أصبحت العربية السعودية في سنوات قلائل منطقة نفوذ اميركية ، وذلك بفضل واقعية الدولار . ولا يمكننا الا ان نلاحظ الفوارق الكبرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والابديولوجية بين الدولة الديمقراطية الصناعية الكبرى ، والمملكة العربية السعودية ، والبترول وحده يمكنه ألا يثير مثل هذه الفوارق حيث كل من الشركاء ينمى ان يتحمل اخف القيود الممكنة من المطالب التي يختارها الفريق الآخر . وبين الحكومتين ، بصرف النظر عن السياسة ، نظمت قوة اقتصادية كبرى ، هي شركة الارامكو العلاقات بين البلدين مع الحرص على ابقائها حسنة .

دبلوماسية البترول

من اجل ان نفهم الدور الذي لعبته الشركة في حقبة كانت فيها قوتها اضعف مما هي عليه يجب ان نعرف عملها اثناء الحرب العالمية الثانية ، لتلقي ضوءاً على البحث . حتى عام ١٩٤٣ كان الاميركيون يعتبرون السعودية منطقة نفوذ بريطانية .

وفي عام ١٩٤١ خوفاً من نفوذ بريطاني لا يزال كبيراً ، عملت الارامكو بكل قواها لتشارك وزارة الخارجية في لعبتها . وهدفها آنذ ان يشمل العربية السعودية قانون الاعارة والتأجير . في تلك الحقبة كانت حكومة الولايات المتحدة الاميركية قد منحت حكومة لندن قرضاً باربعماية وخمسة وعشرين مليون دولار ، من شأنه ان يتيح للندن ان تستمر في مساعدة ابن سعود .

ولكن كما صرح فيما بعد ، فردريك ، رئيس الشركة ، كنا جميعاً نشعر بأن المال الذي كانت تطلقه الحكومة السعودية من حكومة لندن ، كان في الواقع من المال الذي منحناه نحن للبريطانيين . ونحن كشركة

كنا نعتقد بأن الولايات المتحدة كان عليها ان تحصد هي فائدة اموالها لانها احق من البريطانيين في ذلك . وشعور الشركة هذا تحول الى ضغط مستمر على مختلف نظارات الحكومة الاميركية ، واخيراً وصلت الارامكو الى هدفها . وفي الثامن عشر من شباط سنة ١٩٤٣ اتخذ الرئيس روزفلت قراراً يسمح للعربية السعودية ان تستفيد من مساعدة مباشرة في نطاق قانون الاعارة والتأجير . وبهذا الخصوص كتب المراقب الاختصاصي الممتاز - ادوار سابله - وهو في ذلك على حق :

« لقد رشت الشركة الملك السعودي الوهابي بأموال المكلف الاميركي ، وبفضل دبلوماسية الارامكو ايضاً تم اللقاء التاريخي بين الرئيس روزفلت والملك عبد العزيز عام ١٩٤٥ في الاسماعيلية على ظهر الطراد « كونيس » وبفضل تدخل الشركة في دوائر الحكومة الاميركية تم للملك سعود ذلك الاستقبال الحافل في زيارته التي قام بها في بداية سنة ١٩٥٧ للولايات المتحدة الاميركية . وهكذا تكون شركة الارامكو قد تبنت شعار شركة الجنرال موتورز - التي تربطها بها عدة روابط - « ما هو صالح للشركة ، صالح ايضاً للولايات المتحدة الاميركية في الوقت نفسه »

الظهران قاعدة استراتيجية ومقر الارامكو

وهكذا اصبحت الظهران اولي المدن البرولية في الاحياء عام ١٩٥٢ المقر الرئيسي لشركة الارامكو ، وفي الوقت ذاته المكان الذي يقوم فيه مطار استراتيجي ، بته الولايات المتحدة الاميركية ، ثم استأجرته من الحكومة السعودية والاعمال التي بدأت خلال الحرب توبعت فيما بعد على الرغم من تحقيق النصر ، وفي عام ١٩٤٦ تم تجهيز اكبر مطار في

المنطقة واصبح صالحاً لاستقبال جميع انواع الطائرات .

بعد ذلك أجرت حكومة الولايات المتحدة مفاوضات مع الحكومة السعودية وحصلت منها على إذن باقامة قاعدة جوية هناك . ويقع مطار الظهران الذي جهز وفقاً لأحدث الطرق الفنية في نقطة متوسطة تقريباً بين كراتشي والقاهرة وباكو ، أي بين حليف امين (الباكستان) وقناة السويس أهم مجرى مائي في العالم ، والحقول البترولية في القنفاس (احدى ركائز القوة السوفياتية)

ومن ثم تم تبادل المذكرات ووقع في الثامن عشر من حزيران سنة ١٩٥١ للنص المطلوب ذاته الذي أعيد النظر فيه ، وأضيف اليه ملحق خاص بتدريب الطيارين السعوديين في الولايات المتحدة الاميركية . ومقابل ذلك تعهدت الولايات المتحدة بتزويد العربية السعودية بالاسلحة الحديثة من طائرات ودبابات بصورة خاصة . وهذه الاتفاقات هي التي حددها الملك سعود لخمس سنوات اثناء زيارته لواشنطن في مطلع سنة ١٩٥٧ ، وحصل بفضل ذلك على مساعدة مالية كانت أوضاع بلاده المالية في أشد الحاجة اليها :

مظهر الحياد الجديد

احتفظت السعودية مع جارتها وشقيقتها مصر دائماً بعلاقات الود والصدقة والتضامن . وخلال حياته الطويلة ، خرج الملك عبد العزيز مرة واحدة من مملكته فحسب ، وكان ذلك لزيارة ملك مصر عام ١٩٤٦ وبعد الثورة المصرية بقيت العلاقات على حالها ولم يطرأ عليها أي تغيير ، بل انه في السنوات الاخيرة رأينا الرياض تسير وفقاً لمخطط القاهرة السياسي في أكثر الاحيان . وأثبت الملك سعود علناً هكذا سياسة التضامن

العربي الاسلامي . وكذلك تابع العاهل السعودي ، مثل والده ، رعاية ميثاق الضمان العربي المشترك ، بحياكة شبكة من المعاهدات الثنائية تربط السعودية بكل من مصر وسوريا والاردن واليمن . وفي كل مناسبة كانت تستدعي فيها الظروف التأيد وقفت الرياض وراء القاهرة .

والمقصود من ذلك كله توحيد كلمة العرب وجمع شملهم ، وهذه السياسة الاخوية لم تمنح السياسة السعودية من ان تتقرب من بغداد عندما كان يتراءى في الافق خطر يهدد المصالح البترولية في كل من العراق والسعودية .

هذا وقد بذل الملك سعود منذ اعتلائه العرش ما اتفق على تسميته نشاطاً دبلوماسياً ملحوظاً ، فتنقل باستمرار لمقابلة رؤساء الدول العربية والاسلامية وغير الاسلامية ، داعياً الى الرياض أو الى الخليج العربي زملاءه من البلدان المجاورة : بالامس في بغداد ، واليوم في بيروت ، وغداً في عمان : وحمل العاهل السعودي قسطاً من المسؤوليات تزايدت أهميته مع الايام ، في توجيه سياسة الكتلة العربية ، هذه الكتلة التي لا تخلو من تصدع .

وفي عام ١٩٥٥ ازدادت الحالة تعقيداً ، اذ ان حلف بغداد الذي وقع بين تركيا والعراق أدى الى اثاره معارضة مصر ثم السعودية وسخطهما . وعندما انضمت بريطانيا الى الحلف في الرابع من نيسان سنة ١٩٥٥ بلغت النقمة أشدها بين الجماهير في كل ارجاء الوطن العربي وكانت الباكستان قد انضمت الى الحلف عن طريق تركيا ، كما انضمت اليه ايران في تشرين الاول سنة ١٩٥٥ . وقد أثار هذا الانضمام نقمة السوفيات واحتجاجاتهم . وفي الحادي والعشرين والثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ عقدت كل من تركيا والباكستان وايران - دول اسلامية غير عربية - والعراق (البلد العربي الاسلامي) وبريطانيا

(البلد غير العربي وغير الاسلامي) في بغداد الاجتماع الانتاحي لمنظمة حلف بغداد التي أطلق عليها مؤخراً اسم (ميثاق الحلف المركزي) ومن الناحية السعودية والمصرية ، اتخذت عدة اجراءات مناوئة من بينها طرد جون فيليب في السابع عشر من نيسان سنة ١٩٥٥ بعد ان وجهت اليه تهمة القيام بنشاط يضر بأمن الدولة السعودية . ووقع اتفاق عسكري مصري سوري وضع قوات البلدين العسكرية تحت قيادة مصرية مشتركة . وفي العشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ وفي السابع والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ وقع اتفاق مماثل بين مصر والسعودية ، كما وقعت كل من الاردن واليمن اتفاقات مماثلة . أجل ، انه يجب ألا نبالغ في تقدير قيمة هذه الاتفاقات عالياً ، ولكن هذا التصرف يشير على الأقل الى الاتجاهات العربية المعاكسة .

والانشقاق الذي أحدثه حلف بغداد بين البلدان العربية تجلّى أثناء زيارة الملك سعود للهند في تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ وقد جاءت هذه الزيارة بعد ايام من زيارة بولغانين وخروتشوف للهند ، فأصبح الملك العربي خلالها مراراً ، كما فعل الزعماء السوفيات من قبل ، عن عدائه الشديد لحلف بغداد ومقاومته العنيفة له . وفي نهاية الزيارة أعلن البيان المشترك بين نهرو وسعود تبني السعودية رسمياً لمبادئ التعايش السلمي الخمسة ، وعزم البلدين الأكيد على توثيق الروابط فيما بينهما . وفي السنة التالية فيما كانت أزمة السويس على أشدها جاء نهرو الى الرياض ليرد الزيارة للملك سعود . ولدى عودة سعود من دلهي الجديدة كان قد أعلن عن رغبته في اقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي . ولكن الدبلوماسية الارامكوية قد نشطت من جديد لتحول دون تنفيذ هذه الرغبة التي بقيت أمنية في عالم الأماني . وعلى الرغم من ذلك لم يتراجع الاتحاد السوفياتي بل قدم رسمياً في شهر كانون الاول سنة ١٩٥٥ شحنة من الاسلحة الحديثة للملكة السعودية . ورداً على الفصحة التي حدثت بسبب هذا

التصرف أطلق الأمير فيصل آل سعود جوابه التاريخي المعروف عندما سئل فيما اذا كان شراء الاسلحة السوفياتية لا يؤدي الى ادخال الشيوعية الى الشرق الاوسط ، اذ قال : « اننا نشترى الحديد دون المبادئ » . ولما جاء عام ١٩٥٦ حل في طياته طلائع شؤم ساد العلاقات بين السعودية والعالم الغربي . لقد كتب له ان يرى في السادس والعشرين من تموز ، تأميم قناة السويس والنتائج التي ترتبت عليه ومن بينها العدوان على بور سعيد في شهر تشرين الثاني من السنة نفسها . وقبل ذلك بعام في الخامس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ ، كانت القوات البريطانية قد وضعت مؤقتاً حداً لتزاع طويل متشابك ، اذ احتلت البريمي التي تطالب بها السعودية .

وفي كانون الاول سنة ١٩٥٥ تقدمت قوات امسام مسقط بقيادة ضباط بريطانيين وطردت امام عُمان حليف السعوديين من عاصمته . وبعد معركة مذكرات حامية شديدة اللهجة استدعت السعودية سفيرها في لندن وفي شهر ايار سنة ١٩٥٦ كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة عملياً بين الرياض ولندن :

تألق نجم سعود

بعد الأشهر الستة الاولى من سنة ١٩٥٦ التي حملت معها الكثير من الاحداث ، وفي السادس والعشرين من تموز بالذات ، أعلن الرئيس جمال عبدالناصر تأميم قناة السويس ، هذا التأميم الذي أدى الى الاحداث المألوفة بسرعة . وبدون تحفظ وقفت العربية السعودية الى جانب مصر ، وأعلن الملك سعود ان لمصر ملء الحق في تأميم القناة . وفي الاشهر المتعاقبة نالت بكثرة مشاورات ومؤتمرات رؤساء الدول العربية والاسيوية

ولم يفوت سعود أي واحد منها : وفي النصف الثاني من شهر ايلول ، بصورة خاصة ، أصبحت الرياض إحدى كبريات العواصم العالمية الدبلوماسية العربية والاسيوية . واذا لم يتيسر لسعود في الرياض ان يستقبل جمال عبدالناصر أو نهرو ، فانك تجده حتماً في القاهرة يتشاور مع الزعماء المصريين والسوريين ، أو في الخليج يجتمع الى زميله ملك العراق ، وذلك لأن الملك في مساندته المتينة الصادقة لكل حدث من أحداث العروبة والتضامن العربي ، لا ينسى مطلقاً مصالحه البترولية . ويجب ألا ننسى ان حرية المرور في قناة السويس حيث يمر القسط الأوفر من البترول المباع لاوروبا ، هي أمر حيوي بالنسبة للعراق والسعودية في آن واحد ،

وعندما بدأت الحملة البريطانية - الفرنسية على بور سعيد في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ انهار كل أمل في الوصول الى اتفاق حتمي ، وزاد الامور تعقيداً نسب اناييب بترول العراق في سوريا ، اذ فقد العراق قسماً كبيراً هاماً من عائداته ، واذا كانت العربية السعودية لم تتأثر بهذا النسف وبقيت اناييب بترولها التي تجتاز سوريا ولبنان سالمة ، فإن انتاجها تأثر بصعوبة وصول الناقلات البترولية الى الخليج العربي بعد سد القناة ، وفي شهر ايار بدأت الحالة تعود الى طبيعتها بعد تنظيف القناة ، بينما استمر العراق في تحمل الخسائر التي لحقته من جراء نسف الاناييب في سوريا . وفي المؤتمر البترولي العربي المنعقد في بغداد في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ اقترحت العربية السعودية ان تصبح « الامة العربية » هي مالكة الاناييب الجديدة التي قد تمد في المستقبل .

في ذلك الوقت كان ازدياد الوعي القومي في سوريا يقلق سعود ، لا سيما عندما توجه الى الولايات المتحدة في مطلع سنة ١٩٥٧ بعد مرور عشر سنوات على زيارته الاولى التي قام بها وهو ولي للعهد . وبعد ان خف ايزنهاور بشخصه لاستقباله لدى هبوطه من الطائرة رضي

الملك العربي ان يستمع للإمبركيين بشرحون له « مبدأ ايزنهاور » الذي قصد به محاربة التغلغل الشيوعي في الشرق الاوسط . وكانت الدبلوماسية الاميركية تنتظر الكثير من هذه الزيارة بسبب ارتباط الاقتصاد السعودي بالولايات المتحدة . وعند عودته من واشنطن لم يتوقف الملك سعود في لندن كما كانت الحال في السابق ، بل في مدريد ، والرباط ، وطرابلس الغرب ، واخيراً في القاهرة .

في كل مكان تباحث الملك الوهابي مع زملائه . وفي واشنطن كان قد اجتمع ايضاً الى ولي عهد العراق . وفي القاهرة تلقى الملك سعود دعوة رسمية من الحكومة السوفياتية لزيارة موسكو . واخيراً عاد الى الرياض ليشهد الغليان في سوريا ثم في الاردن .

آنذاك كان عرش الاردن مهدداً من الداخل بسبب الغليان الشعبي . وكان ان تلقى الملك حسين في شهر نيسان سنة ١٩٥٧ مساعدة غير منتظرة من الملك السعودي . وقد عرض سيد الرياض مساندته الشخصية للملك الشاب حسين حفيد شريف مكة الهاشمي . وشهدت بغداد في شهر ايار المصالحة الحارة بين آل هاشم وآل سعود اثناء اللقاء الذي تم بين فيصل وسعود . وساد الاعتقاد على اثر ذلك ان الدبلوماسية الاميركية في طريق النجاح لعزل جمال عبد الناصر . وعلينا ان نذكر في هذه المناسبة ان سعود كان قد سبق له وادلى قبل مغادرة واشنطن بتصريح مؤيد « لمشروع ايزنهاور » بشأن الشرق الاوسط . وموقفه هذا لم يكن غريباً ، بكل تأكيد عن موافقة مجلس الشيوخ الجماعية لهذا المشروع بعد مضي شهر من الزمن . وبعد ذلك عندما بدت طلائع الفشل تواكب مبدأ ايزنهاور اثناء الازمة التركية - السورية في خريف سنة ١٩٥٧ ، عرض سعود وساطته فرفضت .

ان البلاغ الاميركي السعودي المشترك المنشور في الثامن من شباط سنة ١٩٥٧ على اثر محادثات سعود - ايزنهاور يرتدي طابعاً بالغ الاهمية .

وهو يحدد موقفاً لا لبس فيه من الجانبين بشأن تعاون اوثنى بين البلدين.
والمادة الاولى من البلاغ توضح نظرة الولايات المتحدة للمملكة السعودية
ورأيها في بروزها على المسرح الدولي . وقد جاء فيها :

« ان للعربية السعودية ، بفضل مركزها الروحي والجغرافي والاقتصادي
اهمية بالغة الجبوية في الشرق الاوسط . ومن مصلحة السلام العالمي تدعيم
هذه المملكة من اجل المحافظة على استقرارها وسلامتها والتطوير التدريجي
لمؤسساتها »

في الوقت الحاضر يتسرف سعود الى اشباع رغبته في الظهور والسفر.
ويتبع سياسة خارجية مؤثرة . انه ذاك « البدوي الطائر » الذي قرر
نهائياً اعتبار كل ما له علاقة ببلد عربي داخلاً في دائرة نفوذ جلالاته
السامية . وفي هذه الاثناء يأخذ السخط من شعبه مأخذه . وعلى الرغم
من التخلف الاقتصادي والجهل المتفشين في انحاء المملكة هذا الجهل الذي
يلقي بكابوسه على السواد الاعظم من الشعب السعودي ، وجدت بذور
الثورة والتحرر الفردي والجماعي العاملة في الشرق الاوسط طريقها المفاجيء
الى قلب العربية السعودية .

وبينما يتابع نجم سعود تألقه على الصعيد الدولي ، تزداد النقمة في
صفوف شعبه ، انها نقمة البدو الذين يهددهم خطر التقدم والتطور .
وهي تختلف عن نقمة عمال البترول والطبقة البورجوازية والطبقة المتوسطة.
ولكن ما هم اذا كان الاساس واحداً. ولتخفيف حدة هذه النقمة جاءت
الاجراءات القاسية المتخذة من قبل الملك ، كمنع الاضراب منعاً باتاً
وتوسيع صلاحيات الاخوان . وهذه الاجراءات كلها تقريباً كانت بدون
قيمة او فائدة . بل كان رد الفعل الحتمي على ذلك ازدياد النقمة .
وعلى الاخص من وراء النظام تبدو من العمال ميول لم تتبلور بعد بشأن
المبادئ القومية . وفي تشرين الاول سنة ١٩٥٧ ، اعلن العمال العرب
في شركة الارامكو انهم سينسفون انابيب البترول اذا ما تعرضت سوريا

لعدوان خارجي :

وهذا معناه انه في امكان حفنة من الرجال ان تقلق راحة سعود وتقضي على اهم موارد قوته بقطع عائدات البترول عنه : وذلك بناء لاشارة قد ترد من الخارج : انه الوجه الآخر للقومية العربية التي تهدف الى اقامة وحدتها عن طرق الشعوب ضد حكامهم :